شمس الأصيل في أمريكا

من أدب الرحلات

د. محمد الجوادي



دار الشروق

شمس الأصيل في أمريكا

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف . ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلكس : SHOROK 20175 LE

دكتور محمّد الجوّادى

شمس الأصيل في أمريكا

دار الشروق

الغلاف : الفنان محمد حجى
الخطوط : محمود إبراهيم

إهداء

إلى روح عاشق النشر ،

الأستاذ محمد المعلم

المثقِّف العربى العظيم

مقـــدّمة

كـان من حظى أن أزور أمـريكا عـام ١٩٨٣ ، وكـان من حظى أن أزور أمـريكـا عـام ١٩٩١ ، ولكنى بـدأت الـزيـارتين بنفسيتين مختلفتين ، فقبل الزيارة الأولى كنت فى غاية الشوق إلى زيـارة أمريكا وجاءت الفرصة الأولى فى ١٩٧٨ ، ولكنى كنت يـومها قـد بدأت خطـوات السفر إلى الأراضـى المقـدسة لحج بيت الله، وجاءت الفرصة الثانية فى ١٩٨٣ فلم أتوان * .

كانت دعوة لحضور ندوة عن الشيخوخـة والتقدم التكنولوجى لمدة ثلاثة أيام فقط ولكنى انتهزت الفرصة وأثـريت الزيارة بعدة برامج خططت لها قبل السفـر ثم فى أثنـاء وجـودى فى أمريكـا نفسهـا. و فيما بين ١٩٨٣ و ١٩٩١ جاءتنى الفرصـة لزيارة الولايات المتحـدة الأمريكية ولكننى كنت متردداً ربما بأكثر مما كنت متحمساً فيما مضى لزيارة أمريكا.

بل إننى فى إحـدى المرات حصلت على تأشيرة الدخـول وحجـزت تذكـرة الطيران ولكنى فى آخر لحظـة آثرت البقـاء فى القاهـرة لأقطع خطوات كبيرة فى عمل تـاريخى كبير لم أنته منـه بعد ، و فى مـرة أخـرى كانت أمـامى فرصة محددة باليـوم لبدء زيـارة طبية ذهبية لـواحد من أكبر مـراكز طب القلب فى أمريكا والعالم ، و لكننى آثرت أن أبقى حتى لا ينفرط عقد ما بذلت من جهد فى رسالة الدكتوراه .

---

* عن هذه الزيارة كتب المؤلف فصلا من كتابه " رحلات شاب مسلم » ، دار الصحوة ، ١٩٨٧ "

وفى آخر ١٩٩٠ كـان علىّ على ما أُبلغت تليفونيـاً وتلغرافيـا أربع مرات فى يومين متتالين أن أتوجه من فورى للكشف الطبى وفى اليوم التالى للسفارة وفى اليوم الثـالث أو الرابـع ا ستقل الطائرة لأكـون فى جورجيا حيـث يُقدر لى أن أقضى ثمانية عشر شهراً فى ظل منحـة السلام التى حصلت عليها لجمع المادة العلمية للدكتوراه .. ولكنى اعتذرت فلم أشأ أن أسـافر لمجرد السفر وبخاصة أننى كنت قد ناقشت رسالة الدكتوراه منذ ثلاثة شهور.

أحب أن أعترف أننى ظللت متردداً فى قـرار زيـارة أمـريكـا حتى بعـد أن وصلت الطائرة إلى بـاريس ثم إلى نيويـورك ثم صالة مطـار جون هـوبكنز بكليفيـلاند ، سـاعتها كنت أتحرك وقـد تملكنى التردد تماماً بينما أنـا أحمل حقيبتىّ الخفيفتين، وفجأة وجـدت اسمى على لافتـة يحملهـا شـاب وسيم يسألنى هل نذهب لاستـلام الحقائب فقلت لـه ليس لى إلا هاتين ، فحمل عنى إحداهما وخرجنا من صـالة المطار لأجد أمامى مباشرة سيـارة بيضاء طويلة ذات أبـواب ستة كأنها هى سيـارة ريتشـارد فى مسلسل فـالكون كـريست .. تمهلت لأتذكر فالكون كريست وأنجيلا وريتشـارد وماجى وميلسيا والصينى العجوز ، وبدا كما لـو أننى سأستغرق فى استدعاء ذكـريات.. أو قل إن شيئا من الشرود اعترانى .. وسرعان مـا أفقت لأجد أن حقيبة هذه السيـارة مفتوحة وأن حقيبتىّ قـد استقرتـا هناك وها هـو الشاب الـوسيم يغلق بـاب السيارة ويتقدم إلى الباب الخلفى الأيمن ليفتحه وليدعـونى إلى الركوب ، وينتظر حتى أجلس ثم يتفضل بأن يشـير إلى عشـرة أزرار كهربائيـة فى سقـف السيارة فى متنـاول يدى ويقـول إن هـذه مفاتيح كل شـىء فى هذا الصالـون .. ويغلـق الباب علىّ وينصرف إلى الناحيـة اليسـرى ليفتح بابه ويربط حزامـه ويقلع بنا !!.

فى هذه اللحظة فقط بدأت أحس أنـه لم يكن ينبغى لى أن أتردد فى مثل هذه الـزيـارة. أنـــا أربأ بك عن أن تســارع فتتهمنى بـأننى انبهـرت حين ركبت الليموزين الأمـريكانى .. ولكنى لن ألـومك إذا اتهمتنى .. حتى ولو لمت نفسى لو اتهمتنى بهذا .. لى الحق فى أن ألوم نفسى .. ولنفسى الحق فى أن تلومنى.... ولكنى لن ألومك إذا ركبت صالونـا دائرياً جميلاً ينظر كل من فيه إلى بعضـهم تضـغط زراً فيضىء التليفـزيون ، وزراً آخر فينضبط التكييـف وآخر فيعمل الراديـو ، ورابعاً فتنزل ستارة زجـاجية بينك وبين السائق فى كـابينته بحيث لايسمعك ، و خامساً فتنزل ستارة معـدنية سوداء بينك وبين السائق بحيث لا يـرى ما تفعـل ، وسادســاً فتضىء الأضــواء الجانبيـة الهادئة ، وسابعــاً فتضىء الأنوار السقفية المبهـرة ، وثامنا فتؤمن إغـلاق الأبواب عليك ... إلخ . وإلى جوار يدك اليمنى فى باطن باب السيارة الريموت الذى يضبط لك ما تشاء من قنـوات التليفزيـون وصورته .. إلـخ . ومفاتيح قنـوات الراديـو . وأشياء أخرى . ثم هذا الصـالون الجميل المسمى بـالليموزين يتحرك وكأنه لا يتحرك ويُسرع وكأنــه واقف ، ويعبر طرقــاً من فوقها طـرق ومن تحتها طـرق وعن يمينها طرق وعن يسارها طرق ... وبينما الجليد يغطى أرضاً إلى يمينك.. فإن الخضرة تغطى الأرض التى إلى الناحية الأخرى .. والأضــواء المبهرة أو الملونة تأتى من بعيد وسرعان مــا تخبو ثم تعود .. وهذا هو طـريقنا إلى المدينة شأن كل مطار إلى مدينة ـ أحياناً تراه جميـلاً حتى لو كان موحشاً ، وأحيانا يكون كطريق باريس أو القاهرة أو بومباى عامراً بكل ما يبعث على الراحة والسعادة ولكن حرارة الجو أو رطوبته ومشقة الطائرة من قبل تجعلك تود لو ينتهى هذا الطريق بزحامه وإشاراته لتعود إلى مشاهدته مرة أخرى! و أحياناً يكون هذا الطريق شيئاً آخر غير الدولة التى هو فيها، كطريق المطار فى نيروبى عاصمة كينيا، و مع أن الطريق من جـون هوبكنز إلى كليفيلانـد ليس فيه شىء مميز

عن أمريكا التى نعرفهـا جميعاً والتى زرتها من قبل .. إلا أن ترددى فى السـفر إلى أمريكا كـان قد قارب التلاشى تمامـاً حين كنت لا أزال فى هذا الطريق . بل ربما بدأت ألـوم نفسى على تفريطى فى الفـرص المتكررة التى اعتـذرت عنها . وطيلة الفترة التى قضيتهـا بعد ذلك فى أمريكـا.. كنت أعود إلى التردد ، لا لكى أتردد فحسب ولكن لأحكم على نفسى : هل أصبت ؟ أم أخطأت ؟ .. لا أقصد فى هذه المرة فحسب ، و لكن فى المرات الأخرى التى ترددت فيها فى المجىء.

وتعود بى الذكريات إلى أوقـات كثيرة بات فيها كل من حولى مقتنعاً بأننى على وشك الهجرة إلى هـذا البلد! وأنا متعجب من أين جاءهم الاقتنـاع الذى لم ألمسه فى نفسى حتى الآن ولو لحظة واحدة! ولم أمهد له أبداً بأى إجراء !!. هل أنا محقٌ فى تعجبى ؟ أم أننى هاجرت من دون أن أدرى ؟

تعالـوا بنا نقرأ هذه الصفحـات المتفرقة لعلنـا نستطيع أن نستكشف معاً الإنسان والمكـان والزمـان .. بل لعلكم تستطيعون أن تكتشفـوا ما لم أستطع استكشافه حتى الآن وإن رأيته بعينىّ ووصفته لكم فى هذه الصفحات!

١١ ابريل ١٩٩١

محمد الجوادى

الفصـــل الأول

هــل تغيرت أمــريكا

(١)

هل تغيرت أمريكا .: هل غيرت أمــريكا نظرتها إلى العالم ؟ كنت أتحدث فى عشــاء (بــالنسبــة لى إفطــار رمضــانى) فى نــادى كليفيــلانــد للتــزحلق على الجليد (Cleveland Skating Club) فى اليوم التالى لوفــاة الأديب البريطانى جراهام جريــن ولا أعرف ما الــذى قادنى إلى أن أقــول : إنه مــن الطريف أن جــراهام جــرين لم يحصل فى الخمسينيــات على تــأشيرة دخــول الــولايــات المتحــدة الأمريكية على أســاس تعاطفه مع الاتجاهات الشيوعيــة وذلك بسبب سياسة المكارثية التى تعتزم أمريكا التخلى عنها نهائياً هذا العام.. ربما .. أردفت ...إن حمى عــداوة الشيوعيــة كانت تنتــاب أمريكــا فى هذه الفترة . أمــا اليوم فقــد تفضلت إحــدى السيــدات الحاضرات فروت لى كيف يأتــى الروس اليــوم إلى أمريكا فى جماعات ، وأنها شخصياً تفاجأ فى المدرسة التى تعمل بها بمجموعة مترابطة من الأطفال الروس جاءوا مع بعضــهم ، وقبلتهم المدرسة مع بعضــهم أيضــاً، ومهــدت لهم دروســاً تعليمية تهيىء لهم الانخــراط فى التعليم الأمريكى بأقصــى سرعة .. وسرعــان ما ينجح هــؤلاء فى الانخراط فى الحياة الأمــريكية ..

هؤلاء الـذين جـاءوا وكأنهم لا يعرفـون حرفاً مـن الانجليزيـة على حد تعبير محدثتنا !!. إذن أمريكا لم تتغير، ولكنها لازالت توظف كل ما هو متاح لها فيما هي محتاجة إليه .. والحاجة تتغير مع الزمن ، وتغير أمريكا بالتالى فى توظيفها للمتاح فتبدو و كأنها تتغير!!.

وتسألنى مزيداً من الإيضاح فدعنى أتحدث معك عن قطاع الطب . تصور أن أى قسم من الأقسام فى أى مستشفى من المستشفيات الأمـريكية استبعد مـن أطبـــاء هـــذا القسـم أولئـك الأوروبيين والشرقيين والعـــرب واللاتينيين(القـادمين من أمريكا الجنـوبية) أى كل أولئك الـذين حصلوا على شـهادة المعادلة قبل أن ينخرطـوا فى الطب الأمريكى ، احصر هؤلاء واستبعدهم من العمل فى هذا المستشفى . ستجد أنك ربما تختزل القسم إلى أقل من نصفه وربما إلى أقل من ربعه .. هل سيتوقف القسـم . لا . لن يتـوقف فى أمريكا عمل أبداً ولكن مستوى الأداء والامتياز سينخفض بالطبع.

أمريكا ليست بلـد الأمريكيين وحدهم وإنما هى بلد كـل العاملين المجدين المتميـزين ، هكـذا فهـم الأمـريكيـون معنى أمـريكـا منـذ بـدأوا يقيمـون إمبراطوريتهم .. وهكـذا أفهمتهم امبراطوريتهم فيما بعـد من دون أن تتحدث الامبراطوريـة .. إنما يشبون فيجدون بلدهم يتقبل مَنْ يضـيف إليـه فيجدون أنفسـهم جيلاً بعد جيل حريصـين على أن يتقبلوا كل من يؤملون فيه أن يضيف إليهم . و هكذا تتضاءل العنصرية القومية فى أمريكا حتى تصل فى رأى البعض إلى العدم ، وفى رأى البعض الأخر إلى العدم المعدوم ! .

ولكن أمريكـا فى ذات الوقت ليس بلد كل المهاجـرين ولا كل الطموحين أو كل الشـاردين أو الذين يجيئـون من شُذاذ الآفاق . أمريكا بلـد الذين يجيئون لمهمة محددة تحتاجها أمريكا قبل أن يحتاجوها هـم .

هل من حقى أن أستطـرد لأحكى لك يـاسيدى أن بـلاداً عـربية مـرت فى العقدين الأخيرين بـالفرصة الكبرى التى تتيح أن تفيد من التجـربة الإيجابية التى خاضتها أمـريكا حينَ طعّمت شعبها على النحو الذى طعمتـه به . والذى لازالت تطعمـه بـه ؟ نعم كـان فى وسـع بـلاد العـرب الغنيـة وهى تستجلب التكنولـوجيا العظيمـة التى استوردتها أن تتخلى بعض الشىء عن قـومياتها المحـدودة لتعطى الجنسية الكـاملـة لأولئك الخبراء والفنيين الـذين يديـرون حياتها التكنـوقراطية بل وأن تغـريهم على حمل هذه الجنسية بكل الـوسائل التى تملكهـا ، سـاعتها لم يكـن من حق أحد أن يفكـر بينه وبين نفسـه فى أنه هناك فى تلك البـلاد إلى حين ، وإنما كانت هـذه المجتمعات قـادرة على تذويب عـدد كبير من الكفاءات الممتـازة فى كيان هـذه المجتمعـات، على نحو مـا فعل الأمريكان الأوائل بإخوانهم البريطـانيين والألمان والفرنسيين والعرب .. الذين ذهبوا بعدهم بمائة سنة أو مائتين .

كان فى وسـع هذه الدول أن تحتفظ ولـلأبد بأربعة آلاف طبيب مصرى من خيرة الأطباء المصريين يصبحـون فى خلال عشرين أو ثـلاثين عامـاً مرتبطين بهذه الـدول من جميع النـواحى بـارتبـاطـات اللسـان والمستقبل والماضى والأسرة والاستثمار والـولاء ، كما حدث لـلأوروبيين فى أمـريكا ، وأنـا أتلفت حولى فأجد الطبيب الفلبينى أو الإيرانى أمريكياً ـ مواطن أمريكى تماماً . بينما أسرتـه بأكملها فى الفلبين أو إيـران ـــ الطبيب المصرى كـذلك ـ أسأل إحـدى الفتيات عن الملامح البولندية فيها أهى بولندية ؟ .. فتقول : بل أبواها جاءا من بولندا.. هـذه الزميلة ولدت فى سـالـزبورج ولكنها أمريكيـة فحين ولدت هناك مـات أبـواها فى طـريقهما إلى الـولايـات المتحدة ، ومـديـرة التأمين الصحى يوغوسلافية الأب والأم ، ومـديرة النشر ألمانية الزوج والأب ، وسكرتيرة قسم الأسنان أيرلندية الأب ألمانية الأم ، وطبيب الأسنان إيطالى الأبوين ، وسكرتيرة

قسم الأوعية الدموية إيطالية الأب أيـرلندية الأم ، وزميلتنا الجديدة فى الرعاية المركزة سويدية الأب.

مـا أكثر مَنْ هم حـولى الآن من الذيـن لم يُولـدوا فى أمريكـا ومع ذلك هـم أمريكان .. ولكننا فى بعض البـلاد العربية وعلى رأسها مصر مصممون على ألا يكون مصرياً إلا من ولد من أبويـن مصريين ، وبعد حين سيطور القانون من تلقاء نفسه بـالتقادم وبدون حاجـة إلى نصوص ليصبح ومن جدين مصريين ثم من سلالـة مصريـة إلـى الجد الرابع !!! ، بل ربما وصـل الوضـــع إلـى هذا الحال ! .

(٢)

وأعود للسـؤال الذى بدأتُ بـه هذا الفصل : هل تغيرت أمريكـا حين بدأت ترحب بالـروس بعد أن كانت ترفض مجرد دخول الأديب البريطـانى جراهام جـرين لأنه ربما ينـاصر الشيـوعية مـع أنه لم ينتم إلى الحزب الشيـوعى إلا بضعة أسابيع عابرة !!.

ما أسهل أن يجيب المرء على مثل هـذا السؤال بطريقة يجتمع فيهـا الذكاء والخبث ويقـول : بل روسيا هى التى تغيرت ، حين تـركت الشيوعيـة ، وحين تركتها رحبت بها أمـريكا .. ولكن المسألة أعمق من هذا بكثير . إن أمـريكا بلد مـؤسسـات وبلد سيـاسـات قبل أن تكـون بلـد أهـواء ، أو علاقـات مـودة أوتشفى!!

أمريكا تقـدر أنها فى حاجة إلى مائة ألف عـامل بسيط وإلا فإنها ستعانى تسلط العمال البسطاء ودكتاتـوريتهم ، حتى وإن كانت محدودة الأثر .. إذن فلا مانع مـن أن يغض البوليس الطّرْف عن الذين يقيمـون بصفة غير شرعية

ليقومـوا بمثل هذه الأعمال البسيطة . حتى إذا وصلت أمريكـا إلى المرحلة التى تحس فيها أن البطالة تهدد اقتصادها ، عندئذ يفتح البوليس عينيه أو يتظاهر بأنه يفركها وهو يرى هؤلاء المهاجرين المقيمين بصفة غير شرعية .

نفس الأمر فى الطب ـــ ربما أوافقك (وأنا سعيد بالطبع) أن الطب هـو قمة المهن ، وأنه سواء فى أمريكـا أو فى مصر أو بنجلاديش يمثل الطموح الأعظم لما يسمى بطبقة "الكريمة" فى شبـاب الوطن ، نعم . ولكن المسألة فى الطب أعمق من هذا ـ إن الطب يـؤدى وظيفة إنسانية مُلحـة أكثر مما يتحكم فى عنصر من عناصر سيادة الدولة نفسها .. ولهذا فإن طموح أى مجتمع ناجح إلى أن تكون الوظـائف المؤداة فيه على أعلى مستوى لن يمانع فى أن يعطى الفـرصة فى أداء هذه الوظيفة لمن هم أقدر عليها .. فإذا كان الأطباء الأمريكيون قادرين على أن يؤدوا الأداء الأمثل فى سبعين بالمائة من مواقع الخدمات الطبية الحيوية فلا بد من أن تُشغل الثلاثون فى المائة من المواقع الأخـرى بالكفاءات التى ترتفع بها إلى ذات المستويات المأمولة ، وإذا كـان الأطباء الأمريكيون غير قادرين إلا على خمسين فى المائة فلا بد أن يتاح للخمسين فى المائة الأخرى مَنْ هم أقدر عليها.

صحيح أن المجتمع الأمـريكى يتمنى أن يتـولى بنفسـه مـائة فى المائة من المواقع بل ويعمل جـاهـداً على تحقيق هـذا الهدف ، بل وتتيح له الإمكـانـات الموجودة أن يفعل هذا ، بل وإحصاءاته قادرة على أن تقول هذا دون معارضة، ولكن حقيقـة العمل شىء آخـر ، سـأضرب لك مثـلاً بمعمل للقسطـرة يضم عشرين طبيباً أمـريكياً قادرين تمامـاً على أداء مختلف أنواع القسـاطـر بنجاح والتزام تامين ، ولكن هنـاك إلى جانبهم خمسة من الوافدين المتأمـركين حديثاً يملكون قـدرة على الإضافة إلى هذا المعمل بحيث يتفـوق على معمل آخر ليس فيه هـؤلاء الخمسة ، ربما تتـوفر لهم قدرة أكثـر على الابتكار ، أو التطـوير ،

أوعلى الدراسات ، أو على توفير الوقت أو توفير الإجراءات والخطوات أياً كانت، بل وربما من وجهة نظر اقتصادية بحتة عندهم القدرة على توفير العملاء !! أى تمويل المعمل بالمرضى سواء من خارج أمريكا، أو من داخلها ، ربما تكون عندهم بحكم شخصياتهم قدرة على إيجاد سمعة لهذا المعمل فى الأوساط المحلية داخل أمريكا ، أو الدولية خارجها ، ربما تكون عند هؤلاء الرغبة الأكثر تأكيداً فى البقاء فى هذا الموقع لأكثر من عشر سنوات قادمة بينما الأمريكيون الأصليون يتنظرون الفرصة ساعة وراء ساعة للصعود إلى مواقع أكثر أهمية، أو أكثر ربحية ، سواء معامل أخرى أو مناطق أخرى أو رئاسات ، هذه هى بعض العوامل التى تحكم اتخاذ القرار بإدماج المتأمركين الجدد فى مواقع ممتازه ، ربما لايحلم بها الأمريكى حفيد الأمريكيين ، ولكن الأمريكى الذى يتخذ القرار يفعل كما يفعل أجداده الأمريكان من قبل حين كانوا ينسون مسألة الأبوين المصريين !!

وهذه هى روح أمريكا وإذا فقدت أمريكا هذه الروح فلن تكون هناك أمريكا، لن تكون أمريكا فى ذلك الوقت مشكلة نتحدث عنها فحسب ، وإنما سوف تكون عدماً ليس هناك من داع للحديث عنه .. إلا عن وجوده الذى سبق العدم .

ربما تستغرب منى ياسيدى هذه القسوة فى التعبير وتظنها شططاً للقلم ولكنها الحقيقة . تسألنى وأين تذهب قوة الدفع يومها ؟ ألا تستطيع قوة الدفع هذه أن تنقذ أمريكا عشرين عاماً أو ثلاثين حتى تعود إلى رشدها؟ وتستأنف توظيف أجناس الأرض فى خدمة تقدم أمريكا؟ .. أقول لك لا . لن تستمر هذه القوة أبداً كما تظن .. لأن أمريكا فى تقدمها تطير ، تحلق بعيداً عن كل ما يخلد بالإنسان إلى الأرض حين يتبع هواه.. قوة الدفع هذه تنقذ السيارات أو المجتمعات التى تسير .. ولكنها لا تنقذ الطائرة أبداً !!

وتسألنى كيف يحدث ذلك ؟ أقول لك : هل رأيت الناس الذين يجيدون السباحة يتدافعون للقفز من القارب الموشك على الغرق فيعجل تدافعهم بغرق القارب .. تماماً هذا هو الوضع الحالى فى أمريكا ، إذا أحس ناجحوها أن الكيان الأمريكى افتقد روح الإمتياز والتمين ، وبات يخلد إلى الماضى بلا عمل ساعتئذ سرعان ما سيتدافع هؤلاء الناجحون إلى ترك أمريكا تغرق بالمخلدين فيها.

لك أن تتصور أننى فى تفكيرى هذا شبيه بأديب محلق ، ولكن المجتمع الأمريكى نفسه يعرف معنى ما أقول ، ويراه بعينه كل يوم حين يجد الشركات والمؤسسات الفاشلة تغلق أبوابها وينتشر الذين كانوا فيها ليبدأوا "أمريكا" من جديد !!.

(٣)

شاهدت فى التليفزيون الأمريكى لقطات غير متتابعة (بسبب انشغالى عن متابعتها بعض الأيام) عن قضية أقامها بعض الموظفين الأمريكيين ضد شركة يابانية كبيرة فصلتهم من عملهم بإجراءات قانونية سليمة فى الشكل طبعاً ـ يتهمونها فيها بالظلم والتحيز لليابانيين . تسألنى هل كانت الحلقات مُوجهة ؟ أقول لك : نعم .. ولكنها كانت موجهة ضد هؤلاء الأمريكان . أيما كان الأمر وانتصر المحامون لهذا الطرف أو ذاك فمن الواضح جداً أن الشركة كانت على حق .

لا شك أن الدفاع عن الأمريكيين كان ممتازاً ، وقد استطاع محاميهم أن يحرج ممثل الشركة اليابانية مرة تلو مرة ، ولكن الحقيقة التى قدمها العمل الفنى كانت أن هؤلاء المفصولين يبتزون الشركة اليابانية . أنا لا أعلم كيف انتهى العمل الفنى على شاشة التليفزيون . ولا أعلم الهدف الذى كان وراء هذا

المسلسل ولا أعلم من الذى أنتج العمل . ولكنى أشهد لك شهادة لوجه الله أن كمية الصدق الفنى فى العمل كانت خير ما فى العمل كله .. ربما ترك العمل الفنى فى نفسك أنه ضد الأمريكيين .. ولكن الحقيقة التى لا بد أنك ستدركها بعد برهة قصيرة أن العمل الفنى كان يهدف إلى مصلحة الأمريكيين لأنه كان يوقظهم لا أقول من النوم ، ولكن من حلم بسيط من أحلام اليقظة المستمرة التى كاد انتباهها يضيع، ولا أقول ضاع منها انتباهها .

وأعود لأتحسر على مسلسلات التليفزيون العربى وأقول .. «هكذا ينبغى أن يكون الفن» أو على الأقل .. هكذا ينبغى أن يكون بعض الفن! لكى يبقى بعض آخر للإمتاع ، وبعض آخر للمؤانسة ، وبعض آخر للفن نفسه! .

أريد بعد كل هذا الحديث أن أنقل لك عبارة قرأتها الآن وبعد كتابة هذا الحديث بشهر أو أكثر تؤكد هذا المعنى ، الذى سوف أقوله : « إن أمريكا ليست لأحد» ، العبارة منسوبة إلى أحد قضاة محكمة الإستئناف فى كاليفورنيا واسمه "رينوسو" (Renoso) وهو أحد الذين تولوا وضع سياسة الهجرة إلى أمريكا ، وهو يتحدث فيها عن وحدة الشعب الأمريكى فيقول : « ما كان الأمريكيون اليوم ..وما كانوا فى أى يوم من الأيام أمة واحدة لغوياً أو عقائدياً.. إن أمريكا وحدة سياسية فحسب ، وليست وحدة ثقافية أو لغوية أو دينية أو قومية » .

(٤)

هل الأمريكيون مُرْهَقون أم مُرفهون ؟ هل يعمل الأمريكيون أكثر مما يستمتعون بحياتهم ؟ أم هم يستمتعون بحياتهم أكثر مما يعملون؟ أم هم يوازنون بين المتعة والإجهاد فى كفتى الميزان ؟ ربما يكون حكمى مجانباً الصواب لأنى سأتحدث عن طائفة الأطباء وهى طائفة يصدق عليها الوصف

القائل إنها محترفةُ عمل أو محترقةٌ عملاً فى كل مكان سواء فى أمريكا أو فى مصر .. وحتى إذا تحدثت عن الممرضات أو السكرتيرات الطبيبات فإنى أتحدث عن نفس المجال تقريباً ، فالعاملون فى المهن الطبية الموازية أو المساعدة يكتسبون مع الوقت قسوة الأطباء على أنفسهم ، ولكنى مع هذا كله وفى هذه النقطة بالذات أستطيع أن أقول لك إن المجتمع الأمريكى قد استطاع أن يجبر الأطباء على بعض الراحة .. تسألنى كيف حدث هذا ؟ فأعطيك بعض الأمثلة لبعض الوسائل التى نفذ بها المجتمع سياسته غير المنظورة .

الوسيلة الأولى أن عطلة نهاية الأسبوع السبت والأحد مقدسة تماماً ، مع أن الطب لا يتوقف عن العمل كما هو معروف ولا بد من أن يكون من بين الأطباء نوبتجى فى المستشفى .. وفى ظل أن العمل فى عطلة نهاية الأسبوع إجبارى ومحدد لكل طبيب كل عدة أسابيع فقد أصبح الأطباء بالتالى يستمتعون بالعطلات الأخرى المتاحة لهم ، أى أنهم أصبحوا يفقدون عطلة ليستمتعوا بثلاث عطلات .. بعد أن كانوا يرتبطون بالعمل ربع الوقت مثلاً أو عشر الوقت فى نهايات الأسابيع .. وأحب فى هذا المجال أن أضرب مثلاً بنفسى ، فلم يحدث أننى فى حياتى عرفت نظاماً محدداً للراحة يوم الخميس والجمعة إلا فى الشهور التسعة التى كنا فيها ثلاثة نواب فقط فى قسم القلب بطب الزقازيق وكان على كل منا أن يتولى أمر الخميس والجمعة كل ثلاثة أسابيع... بالنسبة لى كنت أقضى عطلة فى النوبتجية ، وعطلة فى القاهرة الثقافية ... وعطلة ثالثة بعيدا عن القاهرة، وظللت منتظماً على هذا الحال طيلة تلك الشهور التسعة ، ولم اتمكن أبداً من أن امضى على هذا النحو المنظم بعد ذلك !.

عذراً نعود إلى الأمريكيين فنجد أن عمل الفريق يُجبرهم على العمل فى أوقات محددة إذ ليس الفريق متاحاً فى كل حين ، بل يصعب تماماً تشغيله فى

غير أوقـاته .. وهكـذا أصبح على الأطباء الـذين يمارسـون تقنيات معينـة أن يعرفـوا أن الساعات الأربع والعشرين التـى يعطيها الله لنـا كل صباح ليست للعمل المتـواصـل ، وإنما هـى لأشيـاء كثيرة منهـا العمل الـذى تحدد وقتـه بالدقيقة من قبل لأنه مرتبط بفريق كامل .

الوسيلـة الثانية التى استطـاع بها المجتمع الأمريكى أن يبعـد الأطباء عن العمل القـاتل هى الخروج بالأطبـاء من أمـاكن عملهم من حين لآخر وبكثـرة ربما تقول عنهـا إنها فاقت المعقـول أو المطلوب . فالنـدوات دائماً فى الفنادق، والمؤتمرات الدوريـة دائماً فى أماكن متبـاعدة ، وكـل عام تعقد جمعيـة القلب الأمريكيـة ندوتها فى مكـان غير الذى عقـدت فيه نـدوتها السابقـة ، والمؤتمر أسبـوع كـامل الاشتراك فيـه شبه إجبـارى وهـذا لا يعنى أن جميع الأطبـاء يـدفعون الاشتراك . والأطبـاء فيـه متوقفـون عن العمل فى مستشفيـاتهم إلا لحالات الطوارىء التى يقوم بها حوالى ١٠٪ فقط من القـوة البشرية المتاحة.. وكلية أطباء القلب هى الأخرى لها أسبوع آخـر ، ربما أنتهز هذه الفرصة الآن لأحدثك عن النشاط العلمى المفروض على أطباء القلب ولعلك لاحظت فى الفقرة السابقـة أن هناك جمعيتين علميتين : جمعيـة أطباء القلب الامـريكيين والكلية الامـريكيـة لاطباء القلـب. هذا غير جمعيـات ضغط الـدم ، واختـلال النظم ، والفسيولـوجيا الكهـربية ، والمهمازات والموجـات فوق الصـوتية والتصـوير الصبغى ، والرنين المغنـاطيسى ... الخ الخ) فإذا كـان الطبيب مهتماً بمجالين فقط من هذه المجـالات العشرة إلى حد أنـه يشـارك فى اجتماعـاتها ومؤتمراتها فإنــه مجبر على أن يترك العمل الـروتينى إلى أمــاكن بعيـدة عن بيتــه وعن مستشفاه لأربعة أسابيع على الأقل كل عام .

ولكنى مع هذا أعتقد أن هناك من الـوسائل ما هو قادر فى المستقبل على أن يمنع الأطباء من قتل أنفسهم ، أعتقد مثلاً أن ثقـافة الأبناء فى الأجيال الجديدة

كفيلة بجذب آبائهم معهم إلى المتاحف والأوبرا والمسرح والسينما حينما يزداد رقى هذه الفنون و ابتعادها عن التكرار وحرصها على الفن الرفيع والتجديد والإبتكار حتى تحتفظ لنفسها بمكان فى عصر الفيديو والكمبيوتر، أحب أن أقول إن الأجيال الجديدة محظوظة تماماً أو سوف تكون كذلك بعد ضياع الأجيال التى مرت بالبشرية طيلة النصف الثانى من القرن العشرين .. وأحب أن أسجل من الآن ما بدأت ألحظه تحت الرماد من أن هذه الأجيال سوف تكون قادرة على توجيه الأجيال السابقة عليها إلى كثير من أنماط السعادة والرقى . اعتقد كذلك أن التطوير الرائد فى مناهج الدراسة والتزايد المستمر فى إقبال المهنيين والمشتغلين بالعلوم المختلفة على الإنسانيات سوف يُفسح المجال لإنسان أكثر رقياً وبالتالى لطبيب أكثر إنسانية مع نفسه . واعتقد أن وسائل الإعلام جميعاً ستفقد مع الزمن الحمى التى تفرض عليها السطحية والإثارة وستكون فى المستقبل حريصة على الهدوء والرؤية والتعمق وسوف يتأثر بها الناس أيضاً . و أعتقد أيضاً أن الحاجة الملحة إلى كثير من الإنفاق وكثير من العمل من أجل تدعيم وتوسيع قواعد الأصول الثابتة فى المؤسسات الصحية والطبية على مستوى القطاعين الجماعى والفردى ـ أعتقد أن هذه الحاجة سوف تخف بعض الشيء بما سوف يكون متاحاً ومتراكماً من أصول ثابتة ضخمة أنفق القرن العشرين معظم أرباحه على بنائها أو تسديد ديونها .

(٥)

أحب أن أحدثك بعد هذا كله عن ثراء الأمريكيين . هل زاد ثراؤهم أم أنهم كما يحب الناس فى بلدى أن يتصوروهم بدأوا يعانون المعاناة التى تنتهى (بعد عمر طويل) بالفقر .

لو كنت زرت أمـريكا فى ١٩٥١ أو ١٩٦١ أو ١٩٧١أو ١٩٨١ ثم زرتها فى ١٩٩١ فسوف تحس أن أمريكا أصبحت حـذرة فى إنفاقها ، وأصبحت تشكو بصوت مرتفع من أنها لا يجب أن تنفق على هذا البند مثلاً كل هذا الإنفاق ، أو أن التأمين الصحى غير قادر على تغطية نفقات علاج ٣٨ مليون أمريكى، أو أن معظم نفقات الإدارة الأمريكية يمكن اختصارها احتياطاً للمستقبل .. لن تنجو من أن تطالع هذه الأفكار صباح مساء كل يـوم فى كل جريدة وكل تقرير تطلع عليه ، ولن تنجو أيضا من سماع هذه العبارات فى دردشتك مع الأمريكان أينما كـانوا ، ومع كـل هذا تتأمل ثـروة الأمـريكى فتراهـا تزداد يـومـاً بعد يـوم ، وتتضخم ، ترتفع الـودائع فى بنوكهم كما لم يسبق لها أن تـرتفع ، وأصولهم الثابتة تتضـاعف بما لا يحتاج إلى إحصاء ، وأكثر من هـذا فإن الدولار أصبح يمثل بالنسبة للاقتصاد العالمى أكبر بكثير مما كان يمثل فيما مضـى ، ولك أن تقارن بين سعر الدولار اليوم بالنسبة لأى عملـة ، وبالنسبة لذات العملة منذ عشر سنوات فإذا أنت تجد الدولار هو الـرابح .. وحتى فى الأحوال القليلة التى ينهار فيها الدولار أمام عملة أخرى فإن الدولار وأصحاب الدولار يفعلون هذا من أجل عيـون الدولار .. يغرون أثـرياء منطقـة ما حتى يحولـوا أموالهم إلى الدولارات بما يقدمـون عليه من رفع سعر الفائدة ومـا إلى ذلك من المغريات ، ويدعمـون الدولار حتى لا يكف عن الارتفـاع حتى إذا وصلوا إلى نقطـة ما لا يعرفها سوى خالقهم هبطوا به فجأة فهبطوا بكل قيم الأشياء التى تحولت إلى دولار ، وهم المستفيدون فقط .. لأنهم حصلـوا على كل ما يـريدون بـالدولار العالى .. ثم أصبح الدولار فى أيـدى الناس من حولهم رخيصاً !!. غايـة ما أريد أن أقوله لك هـو أن الأمريكان أصبحوا اليـوم أكثر وعياً فى إنفاقهم ممـا كانوا عليه من ذى قبل.. أريد أن أقول لك ذلك حتى أصـحح لك ما قد يترامى إلى ظنك من أنهم أصبحوا أقل ثروة عما كانوا عليه من قبل !!!.

(٦)

دعنى الآن أحدثك عن كتـاب شيق أتيح لى أن أطالعه هـذا الأسبوع ولكن لابأس أن ألخص لك الفكـرة التى فيـه . الكتاب اسمـه :ـــ (الأجيال . تـاريخ مستقبل أمـريكا « ١٥٨٤ ـــ ٢٠٦٩) Generations : The History of America's Future(1584 - 2069) المؤلفان هما شتراوس (٤٤ عاماً)ـ ونيل هوى (٣٩ عاما) والكتـاب صـدر عن دار نشر Morrow ويباع بحـوالى ثلاثـة وعشرين دولاراً، وتخلص الفكرة التى عمد إليهـا المؤلفان أنهم قسموا أجيال أمـريكا إلى ثمانية عشر جيلاً وذلك بأن جعلوا الجيل الـواحد ٢٢ عاماً ـ (معلومـاتى السابقة أن بعض علماء الاجتماع اعتمدوا ٣٣ عاماً فى المتوسط بحيث يصبح القرن ممثلاً لثلاثـة أجيال) ، ولم يصنفـوا الناس حسب انجـازاتهم وتواريخهـا ، ولكنهم أخذوا الزعماء والبارزين بتواريخ ميلادهـم ـ هل تعرف ماذا يعنى هذا ؟ أبسط لك الأمور وأضرب لك بمصر مثلاً كنت كثيراً ما استعمله لإثارة لمحات المقارنة الصحيحة فى حديثى السياسى مع بعض من تحدثت إليهم ، ولا أذكر إن كنت قد سجلت هـذه الفكرة فى مقال أو كتـاب لى من قبل أم لا ، كنت أقول إن مصر حُكمت طيلة الفترة من ١٩٣٦ وحتى ١٩٨١ (حوالى نصف قـرن) بثلاثة من مواليـد ثلاث سنوات متتـالية ـ فقـد ولد الملك فاروق فى ١٩٢٠ ، و ولـد عبد النـاصر فى ١٩١٨ ، و ولـد أنـور السـادات فى ١٩١٩ (فى بعض الأقـوال فى ١٩١٨) كنت أورد هذا القول فى التدليل على عـدة معان :أولاً : أن رجال الثورة لم يكونوا صغار السن حين تولوا الحكم فقـد سبقهم إليه ومنذ ١٥ عاماً ملك أصغر منهم فى السن كان فى كثير من الأحوال حريص على أن يحكم لأنه يملك ثـانياً : إن الحكمـة الزائدة التى تميـز بها أنور السـادات كانت تعتمـد ضمن ماتعتمد على عـامل السن إذا ما قورن بعبد النـاصر أو بفارق السن (مع عدم إغفال الجوانب الشخصيـة فى كل منهم جميعاً) مـا علينا من هـذا الاستطراد الذى يجب أن أعتذر عنه وهأنذا أعتذر!!

شتراوس و هوى يـاسيدى يذهبـون إلى أبعد ممـا أذهب بكثير جداً ، إنهم يقسمـون الأمـريكان منـذ ١٥٨٤ وحتى أوائل القـرن الحادى والعشرين إلى ثمانية عشر جيلاً لكل جيل ميزة واسماً مميزاً ويأخذون لكل جيل شخصاً من المشاهير الذين ولدوا فى الفترة الزمنية التـى حددوها للجيل ليجعلونه «العينة» ـ عينة الجيل ـ إلى هنا والأمر بسيط أو قل إنه بسيط.

لكن شتراوس و هوى ينظـران إلى الأمور من زاويـة أخرى هى زاويـة ما نقول عنه الدورات ـ أو ما قالـه مؤرخ عظيم ملخصاً فلسفته فى التاريخ ـ من أن التاريخ يعيد نفسه . و هكـذا فإن المؤلفين يضعان كل أربعة أجيال فى دورة وتتعاقب الدورات ـــ فالدورة الواحدة على هذا تضم أربعـة أجيال : الأول هو جيل **المثاليين** ثم يليهـم جيل **الفاعلين** ويليهم جيل **المدنيين** وتنتهى الدورة بجيل **المتاقلمين** لتبدأ بعـد ذلك دورة جديـدة تبدأ بـالمثاليين ثم الفـاعلين ثم المدنيين ثم المتأقلمين .. دعنى ألخص لك الـدورات والأجيال وصفـات الأجيال وعينات هذه الأجيال خلال الصفحتين الآتيتين :

الدورة الأولى : المستعمرون Colonial ولك أن تترجمها بالاستعماريين، أو سكان المستعمرات والدورة الثانية دورة الثورة ، والدورة الثالثة دورة الحرب الأهلية ، والـدورة الرابعة دورة القـوة العظمى والدورة الخامسـة هى الدورة التى نعيشـها الآن !!

فلنبدأ بالدورة الأولى ، فى هذه الدورة وهى التى تضم بالطبع أربعة أجيال الجيل الأول هـو جيل البيـوريتـان Puritan والبـوريتـان كما نعلم هم القـوم الحريصون على التطهـر من كل الأدران والخطايا إلى حـد التزمت ، وفى الأدب العـالمى نقرأ هـذه العبارة فى وصف بعض مجتمعـات أو أشخاص العصـور الوسطى ـ هؤلاء بـالطبع مثاليون ـ وهم بداية الدورة وهـؤلاء يمثلون مواليد الفترة من (١٥٨٤ ـ ١٦١٤) وعينة هؤلاء : جون ونتروب .

الجيل الثانى (١٦١٥ ـ ١٦٤٧) جيل الفرسان Cavalier هؤلاء بالطبع وكما يتضح حتى من تسميتهم فاعلون إيجابيون ـ وعينة هؤلاء هو انكريز ماذر وسوف أحدثك عنه بعد قليل .

الجيل الثالث (١٦٤٨ ـــ١٦٧٣) جيل المتألقين Glorious وهؤلاء بالطبع وكما يتضح من اسم جيلهم يمثلون المرحلة الثالثة من الدورة الأولى ، وصفتهم بالطبع أنهم مدنيون ، وعينة هؤلاء هو كوتون ماذر وهو ابن انكريز وسوف أحدثك عنه وعن أبيه وجده بعد قليل . والجيل الرابع (١٦٧٤ ـ ١٧٠٠) هو جيل التنويرEnlightenment وهم قوم متأقلمون يمثلهم وليام شيرى .

دعنى أحدثك عن أقطاب هذه الدورة الأولى وسأبدأ بالحديث عن العائلة التى تضم قطبين هما قطبا الجيلين الثانى والثالث فى الدورة الأولى . عائلة ماذر هذه تمثل عصراً كان فيه رعاة الكنيسة فى مساتشوستس هم القادة فى الحياة العامة والعقلية . أما ريتشارد ماذر (١٥٩٦ ـــ ١٦٦٩) فقد ولد فى لانشستر بإنجلترا وتعلم فى أكسفورد، وسببت له أفكاره البيورتانية مصاعب مع الكنيسة الإنجليزية مما أبعده عن تولى المسئولية ، وقد ترك إنجلترا فى ١٦٣٥ وبدأ حياة جديدة فى مساتشوستس ومنذ ١٦٣٦ وحتى وفاته ظل راعيا للكنيسة الطائفية أو الإبراشية Congregational فى دورشستر وهو الذى ألف كتاب المزامير الذى يسمى Bay Psalm book . و أما انكريز ماذر الذى اختاره المؤلفان عينة للجيل الثانى (١٦٣٩ ـ ١٧٢٣) فهو ابنه ـــ وقد عمل راعياً لكنيسة بوسطن الشمالية (أو الثانية) منذ ١٦٦٤ وحتى وفاته ، وكانت له محاولات مشهورة جعلته بمثابة العدو الأول لأى نوع من التحديث فى نظام نيو انجلند كنيسة أو حكومة ، وقد عارض بقوة أولئك الذين أرادوا تحديث

نظام الكنيســة أو قوانين التطهر وقضــى ماذر أربعة أعــوام فى لندن فيما بين ١٦٨٨ و ١٦٩٢ عند وليام الثالث حتى حصل منه على موافقة بتوحيد بليموث ومســاتشــوستس . وعمل مــاذر مــديراً لجامعــة هــارفــارد فيما بين ١٦٨٥ و١٧٠١ وكــان قــريباً مــن الباحثين والعلماء على الرغم من تحفظــه الــدينى والسياسى، وسانــد من موقعه كمدير للجامعــة حملة التطعيم ضد الجدرى ، وكان هذا بــالطبع موقفاً غريباً من رجل دين على مثل مــذهبه، يهمنى أن أذكر لك أن انكريز ماذر ولد حقيقة فى دورشستر لأن أباه كان فيها منذ ١٦٢٥ كما ذكــرت لك فى الفقرة السابقــة. ولكن انكريــز مــاذر درس فى هارفــارد كمــا درس فى كليــة ترنيتى فى دبلن ، وقضــى سنوات طــويلــة من حياتــه مبشراً فى الجزر البريطانية .

أما كوتون ماذر الذى اختاره المؤلفــان عينة للجيل الثالث فهو ابن انكريز وحفيــد ريتشــارد وقــد رُسم كــاهناً فى ١٦٨٥، وقــد أصبح بــذلك مســاعــداً أومشاركاً لــوالده فى كنيسة بوسطن الشماليــة ، وتولى منصب راعى الكنيسة حين سافر والــده إلى لندن كما ذكرنا .. ثــم تولى مسئولية الكنيســة بعد وفاة والده . وقد ألف كوتــون ماذر هذا ما لا يقل عن ٤٥٠ كتابًا وقــد تأثر بنيامين فرانلكين بأحد كتبــه وهو كتاب Essays to do God الذى ألفــه ١٧١٠ ، وكان كــوتون كــوالده صــديقاً للعلم والتعليم ســاعد فى إنشــاء كلية بل وكــان أول أمــريكى ينتخب زميلاً للجمعيــة الملكية فى لنــدن ، ومثل هذا الشـــرف يعطيك فكــرة عن هـــذا التألــق الــذى يمثلــه كوتــون مــاذر الــذى ترى صـــوره فى القواميس والموسوعــات الأمريكيــة معبرة تماماً عن هذا التألــق . هذا وقد ولد كوتون فى بوسطن.

بقى أن أحــدثك عن وليام شيرى ، وقــد ولــد ١٦٩٤ فى إنجلترا وتوفى عــام ١٧٧١ ، وقــد عمل كحــاكم للمستعمــرة مســاتشــوستس فيما بين ١٧٤١

و١٧٦٥، وتولى لفترة قصيرة قيادة القوات البريطانيــة فى شمال أمريكا . كان مسئــولاً عن الاستيلاء على لـويـزبورج فى ١٧٤٥ فى أثنـاء الحرب الفرنسيـة الهندية وعنـدما ضمت إنجلترا مساتشوستس إلى جـانبها فى الحرب استطاع شيرلى تحرير النظـام النقدى وإصلاحه . وقـد تولى حكم جزر الباهــاما فيما بين ١٧٦١ و ١٧٦٧ .

دعنا نتحرك إلى الدورة الثانية دورة الثورة Revolutionary وفى هذه الدورة هى الأخرى أربعة أجيال .

الجيل الأول جيل اليقظة أو الصحوة Awakening (١٧٠١ ـ ١٧٢٣) وعينة هـذا الجيل الرجل العظيم بنيـامين فـرانكلين الذى لا شك أنك تعـرفه ، وهـذا الجيل بالطبع جيل مثالى .

الجيل الثانى جيل الحرية Liberty (١٧٢٤ ـ ١٧٤١) وعينة هذا الجيل هو الرجل العظيم جورج واشنطـن الذى لا شك أيضا فى أنك تعرفه ، وهذا الجيل بالطبع جيل فاعل .

الجيل الثالث جيل الجمهوريين Republican (١٧٤٢ ـ ١٧٦٦) وعينـة هذا الجيل هو الرجل العظيم توماس جيفـرسون ، وهذا الجيل بالطبع جيل مدنى، يؤسس دولة ومؤسساتها .

الجيل الرابع جيل التوفيق Compromise وهؤلاء ولدوا فيما بين (١٦٦٧ ـ ١٦٩١) ويمثلهم أندور جاكسـون ـ وهؤلاء الموفقون بالطبع قوم متأقلمون.

استطيع أن أؤكـد لك الآن ياسيـدى القارىء أنك قـد بدأت تتفهم فلسفـة المؤلفين فى هذا الكتاب ـــ ربما لأن معرفتك بهؤلاء الرجال الـذين يمثلون عينة الدورة الثانية ـ دورة الثورة تفوق بالطبع معرفتنا ومعرفة كل الناس بالدورة

الأولى حيث كانت أمـريكا لا تزال فى ظلام المستعمـرات أو تحت تأثير ضبابها الذى لم ينقشع بعد .

دعنا نمضـى مع المؤلفين مع جيل الدورة الثـالثة دورة الحرب الأهـلية Civil War هـذه الدورة يـاسيدى تضم ٣ أجيـال فقط ، فليس فى دورة الحرب وقت للمدنيين ، أقصد ـــ بل يقصد المؤلفان ـ أن أحداً من الـذين ولدوا فى أثناء الحرب لن يكون مدنياً .

الجيل الأول (١٧٩٢ ـ ١٨٢١) جيل ماوراء الماديات هكذا أفهم قصده من تسمية هذا الجيل بجيل Transcendental ربما جاءنى الفهم من عينـة هذا الجيل وهو الرجل المحبب إلى قلبى إبـراهام لنكولن الرئيس السـادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) هذا الجيل بالطبع جيل مثالى .

الجيل الثانى وهـو جيل فاعل حسب تطـور الدورة هو مـواليد الفترة من (١٨٢٢ـــ١٨٤٢) وعينتهم هو أولـزسيـز جرانت وهـو جيل المُذَّهبين Gilded وجرانت هو الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية ، ولد ١٨٢٢ وتوفى ١٨٨٥ وتولى الرئاسة فيما بين ١٨٦٩ ـ ١٨٧٧ وهو مـن مواليد أوهايو وهو الـذى قاد قـوات الحلفاء إلى النصر فى ميسـورى عام ١٨٦٦ وعين قـائداً أعلى للقـوات الأمريكيـة فى ١٨٦٤ ثم سرداراً للقـوات الفيـدرالية تحت قيـادة لى فى ١٨٦٥ ثم انتخب رئيسـاً لدورتين رئاسيتين وأخفق فى الترشيح للثـالثة وقـد جاءته السياسة من باب النجاح العسكرى الذى حققه ، وقد تكونت شخصيته بفضل العـزم والدقـة والثقـة والقدرة على التعلـم من التجارب ولكن المعيتـه العسكريـة لم تكن قادرة على حل مشـاكل الأمة .. هكـذا يقول الأمـريكان عن قـائدهم فى ١٨٧٠ قبل أن يقـول البريطانيـون عن تشـرشل فى ١٨٤٧ نفس

الكلام، وأعداؤه يقـولون عنه إنه رئيس ضعيف ويكاد المؤرخـون يوافقونهم على ذلك .

الجيل الثـالـث والأخير فى هـذه الـدورة (١٨٤٣ ـــ ١٨٥٩) وهـو جيل التقدميين Progressive جيل متأقلم ويمثل هؤلاء الرئيس تيودور روزفلت.

تبـدأ بعد هـذا كله الـدورة الرابعـة دورة القوى العظمى . وأول أجيـالها (١٨٦٠ ـ ١٨٨٢) هـو جيل المبشرين أو رجـال الإرسـاليـات ـ وهم مثـاليون [حسب تقسيم المؤلفين] ويمثل هـؤلاء فرانلكين روزفلت . ثـانى أجيال هـذه الدورة (١٨٨٣ ـ ١٩٠٠) يطلق عليهم المؤلف تسمية الجيل الضال أوالضـائع Lostـ وهم فاعلـون ـ ويمثل هؤلاء دوايت أيزنهاور . ثالث أجيـال هذه الدورة (١٩٠١ ـــ ١٩٢٤) جيل مـدنى ـــ وهـذا هـو الجيل الـذى نعـرف كثيراً من شـخصياته ـ بل إن من هذا الجيل الـرئيس الأمريكى الحالى بوش، ومنه أيضا معظم الرؤسـاء الأمريكيين الـذين عرفناهم فى السنـوات الماضية ، عينـة هذا الجيل عند المؤلف هـو الرئيس العظيم جون كنيدى . رابع أجيـال هذه الدورة (١٩٢٥ ـ ١٩٤٢) جيل متأقلم ـ ويسميه المؤلـف جيل الصمت ـ ويأخذ عليه مثلاً والتر مونـديل ، نائب الرئيس الأمريكى الذى تـراه أنت وكل العالم اليوم يحظى بإنتقاد الأمريكيين لأنه لا يفعل شيئاً ..

أما الـدورة الخامسة فأول أجيـالها هو جيـل الازدهار Boom (١٩٤٣ ـ ١٩٦٠) وهو جيل مثالى عينته عند المؤلف هو نويت جنجريش .

ثانى أجيالها هو الجيل الثالث عشر Thirteenth لم يسمه حتى الآن إلا بهذا الأسم وهم مواليد (١٩٦١ ـــ ١٩٨١) ومن المفترض أن يكونوا فاعلين. ويأخذ عليهم مثلاً توم كروز وهو فنان أمريكى ناشىء محبب إلى قلوب الأمريكيين .

ثالث أجيال هذه الدورة هم مواليد (١٩٨٢ ـ ٢٠٠٣) من المفترض أن يكونوا مدنيين ــ والمؤلفان يعجزان عن تسمية هذا الجيل فيأخذان له اسم الدورة نفسها . وآخر الأجيال هو الجيل الذى لم يولد منه أحد بعد (٢٠٠٣ ـ ٠٠٠٠٠) ليس له اسم بعد . وليست له صفة وليست له عينة !!.

هل قصدت من استعراضى معك لهذه الدراسة كلها على هذا النحو أن أبين لك أن الأمريكيين ليسوا المثاليين فحسب ، وليسوا الفاعلين فحسب ، وليسوا المتأقلمين فحسب ، وليسوا المدنيين فحسب ولكنهم مزيج من تعاقب كل هذا من لدن مولدهم وإلى حين تبرز صفاتهم فى أعمالهم الجماعية فتصبغ الأجيال والحقب الزمنية بما نراه واضحاً ومؤثراً فى التاريخ المعاصر. وعلى أية حال فإن هذه الدراسة نموذج للدراسات التى تتناول التاريخ الاجتماعى من منظور يحاول أن يفهم تعاقب الحوادث فى ضوء فلسفة قد تخطىء وقد تصيب ولكنها تجيب عن سؤال لماذا حدث وكيف حدث بطريقة تهيىء الأذهان لقراءة تاريخ المستقبل .

وتاريخ المستقبل شىء مهم جداً ، رغم أنى من أشد المقتنعين بأنه من المستحيل أن يمضى الزمن بطريقة خطية (Linear) فنفترض مثلاً زيادة فى الدخل إلى ١٢١٪ فى العام القادم إذا كان العام الماضى قد حقق فى نفس الظروف الزيادة إلى ١١٠٪ . نعم أنا من أشد المعارضين لمثل هذا التفكير الخطى ولكنى مع ذلك من أكثر المحبذين لاستعماله لبناء إطار أولى ـ وخط تمهيدى فحسب . نعم لن يصدق ولكن لا بد من وجود معيار نقيس به قيمة نفترض وجودها حتى إذا كنا متأكدين تماماً من أنها لن تكون هكذا .. لأن هذا عندى أفضل من العدم ! .

(٧)

أحب أن أحدثك الآن بشىء من التفصيل أو الإيجاز لا أدرى ، عن حياة

الأمريكيين اليومية اليوم!! ربما أبدأ بـالإسكان وخاصة إذا كان المؤلف من بلد لا يعانى من شىء مثل معاناته من الإسكان!! سنتحدث كثيراً بالآكر ، فلا بد لك من أن تعرف كم يساوى الآكر ACRE الآكر ياسيدى مقياس مساحة وهو يساوى ٤٣,٥٦٠ قدماً مربعا أو ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو ١٦٠ عموداً rods مربعاً . والآكر ياسيدى مربع الشكل كل ضلع من أضلاعه يساوى ٢٠٨,٧ قدماً . وفى النظام المترى الذى نعرفه جميعاً ياسيدى الآكر يساوى ٤٠٤٧ متراً مربعاً . [تذكر أن الفدان يساوى ٤٢٠٠ متراً مربعاً تقريباً] أى أن الآكر يمثل ٩٦,٣ ٪ من الفدان تقريباً وفى هذا النظام فإن الهكتار يساوى ٢,٤٧١ آكر . وفى الموسوعة التى رجعت إليها لأنقل عنها هذه المعلومات ـ وهى موسوعة كتاب العالم ـ الناشر Field Enterprises Eductional Corporation شيكاغو . فى هذه الموسوعة رسم توضيحى يبين لك كم يساوى الآكر بمساحة البيوت المقسمة (البلوكات) فى أمريكا .. وأنت ترى فى هذا الرسم أن الآكر يساوى المساحة التى يحتلها سبعة بلوكات كل منها ٥٠ قدماً × ١٢٥ قدماً . سأقرب لك المسألة بالنظام المصرى (المترى) . تصور بيوتا متلاصقة من اليمين والشمال على صف واحد لكل بيت منها واجهة طولها ١٥ متراً وتمتد هذه البيوت متوازية جميعاً فى العمق بطول ٣٧,٥ متراً إذن فكل بيت من هذه البيوت مساحته ٥٦٠ متراً تقريباً الآكر ياسيدى هو سبعة من هذه البيوت الضخمة الفخمة .

تصور أننا أخذنا كل بلوك من البلوكات فقسمناه قطعتين (على طريقة رأس البر مثلاً) كل قطعة ٢٨٠ متراً إذن هذه المساحة على طريقة الإسكان الإقتصادى تكفى ٣ شقق (أحيانا ٤ ونادراً ٢) ومثل هذه البيوت الأربعة عشر تكون مع بعضها آكر واحد .

تعـال نتأمل حال الأرض الـزراعيـة فى مصر تتحول إلى أرض مبـانى أنت تعرف أن الفدان ٢٤ قيراط ـ الأكر يساوى على أقل تقدير ومع الإكرام الواجب لك ـ ٢٣ قيراط ، وعـادة فإن الفدان يمكنه أن يهيىء أرضاً لإقـامة ٢٤ بيتاً أو ١٦ بيتـاً من مستـوى أرفع . قل أن الأكـر يهيىء ٢٣ بيتـاً أو ١٥ بيتـاً من مستوى أرفع وقارن ذلك ببيـوت الأمريكان التى أحدثك عنهـا الآن . خذ مثلاً ياسيدى هـذا البيت الصغير الذى أسكنه ــ طابقه العلوى ثـلاث حجرات نوم فقط وحمام . فى طابقه الأول حجرة استقبال وحجرتا نوم ومطبخ وحمام . هذا البيت ياسيدى يتمتع بأرض واجهتها خمسون قدماً على شارع رئيسى وله فى العمق أقصد لأرضـه فى العمق ٢٢٥ قدمـاً . إذن فهـذا البيت يملك من الأرض ٥٠ × ٢٢٥ قدمـاً وهـو مـا يزيد عن ربع فـدان !! هذا الـربع فـدان فى ريف مصر كاف لإقامـة ستة بيوت على الأقل فيها من الحجـرات أكثر بكثير مما فى بيوت الأمريكان .

أظننى الآن قد وصلت معك إلى تصور قائم على المقارنة ، ولعل صورة هذه البيـوت الجميلة المتنـاثرة على المسـاحات الخضراء الممتـدة قد اتضحت أمـام ناظـريك الآن . كل بيت يطل على الجهات الأربعة . أمـامه الشـارع الـذى يأخذ منه رقمه ، ووراءه مـائتا قدم على الأقل منها مائة قـدم يمتلكها فضاء تتصل بمائة قدم فضـاء أخرى هى التى تمثل عمق البيت المناظـر المطل على الشارع التالى . وعن يمين وعن شمال فضـاء مرصوف بعضـه لتمـر منه السيارات إلى الجراج خلف المنـزل ، هذه هى البيـوت ياسيـدى . ليس هنـاك بيت فى مدينـة مرتفعات كليفيـلاند كلها شذَّ عن القاعـدة و ارتفع أكثر من دورين ، إنما كل البيـوت حـريصة على نفسهـا لم تصبهـا حمى الهدم والأسمنت المسلح التى تجتاح مصر فيما يشبه الوبـاء الذى يستعذبه المصابون بـه . ويظنون ارتفاع درجة الحرارة المصاحب للحمى نوعاً من التدفئة المركزية غير مدفوعة الأجر .

وكل هـذه المنطقة يـاسيدى مسماة بأسماء إنجليـزية . لى ، كنجستـون ، فيرمـونت ، فايـرهل ، تـايلـور ، كوينستـون ، بـرنستـون ، شارلستـون ، مارلبورو، نورثن بارك ... إلخ .

(٨)

والناس يسكنـون بيوتهم .. لكلٍ بيته ، ولكل بيتٍ صاحبُـه ، وهكذا الحال فى سبعين فى المائة من مساكن الأمريكيين .. وتتبقى بعـد ذلك ثلاثون فى المائة من المســاكن للمـواطنين الذين لا تمكنهـم ظروفهم من بنـاء المسـاكن أو إلى اقتنـائها إلا بعـد حين .. حين يتـاح لهم الدخل أو حين تتـاح لهم الأسرة التى تستلزم مسكناً .. أو حين يتاح لهم الاستقرار .

أحب أن أستأنف هذا الحديث عن بعض جوانب الحياة اليومية فى الولايات المتحدة الأمـريكية لكى تتأمل بنفسك هذه الجنة أو هـذا الجحيم . أنت تعرف مثلاً أن الحياة هنا قامت على مبدأ الاعتماد على السيارات الخاصة . وحين كنا لا نـزال دون العـاشرة كنا (أنـا وأخى أحمد) نستمع بشـوق إلى أى صـديق للعائلـة عاد من أمريكـا فكان أول ما يحكيـه هو أنه لا أحـد هناك إلا ويمتلك سيارة . حتى إن كل العاملين فى فرن الخبز يركبون سيارات من ذوات الأبواب الستة .. لهذا فليس غريبـاً عليك أنك ترى السيارات وكثرتها اللامتنـاهية هنا ولكنك مع هذا تجد الأتوبيســات العامة على فخامتهـا وجمالها وتكييفها قليلة العدد . متباعـدة الزمن فى مرورها عليك .. وعلى سبيل المثـال فإن عودتى من المستشفى إلى البيت فى الأسبوع الأول كـانت تستغرق ربع ساعة بـالتاكسى ولكنهـا تستغـرق مالا يقـل عن الساعـة بـالأتـوبيس رغم أننـا نسلك نفس الشـوارع بـلا اختصار على الإطـلاق . ذلك أننـا فى الأتـوبيس ننتقل مـا بين أتوبيسين أولهما ينقلنا إلى ميدان واسع فسيح ، ولكنه بلا حياة على الإطلاق ،

وهو ميدان دائرة الجامعة ، أو حلقة الجامعة . ثم تنتظر قرابة نصف ساعة حتى يأتى أتوبيس آخر .. هذا إذا عدنا بعد الساعة الثالثة .. أما إذا عدنا قبل الساعة الثالثة (وهو ما لم يحدث) فإننا نكون حينئذ معرضين لانتظار الأتوبيس الثانى قرابة ساعة !! لأنه فيما قبل الثالثة لا يأتى إلا كل ساعة .

لعل أسوأ ما فى الأتوبيس هو ذلك الوقت الطويل الذى تنتظره فيه بين مجموعة قليلة من البشر لا تبعث أبداً إلا على الخوف ، بل والرعب، هل تستأهل المسألة هذا الرعب .. أم أننا من كثرة ما حذرونا (حتى ونحن لا نزال فى أقطارنا)من هؤلاء الأمريكيين أصبحنا نخشاهم بأكثر من اللازم ، ونخشاهم جميعاً الصالح والطالح .. نعم ياسيدى ربما يكون رأيك أننى أبالغ فى قولى أن هؤلاء لا يبعثون على الاطمئنان أبداً . ألا ترى هذه الملابس التى لاتدل إلا على أنهم خرجوا فى سرعة متناهية حين علموا بوجود الضحية (الذى هو أنا مثلاً) حتى يقتلوه ويسلخوه ويعودون بجلده وكل ما فى جلده .. انظر إلى هذه الوجوه ، هل تتوقع من هذه الوجوه أن تستجيب لرجاءاتك حين تصبح ضحية فى أيديهم .. والجأ إلى الله أن يزيل عنى الخوف . ولكن أليس من حقى على نفسى أو من حق نفسى علىّ ألا أرمى بها إلى التهلكة؟ هكذا تتدافع مشاعر الخوف والاطمئنان حتى يأتى الأتوبيس والأتوبيس لا يأتى .. اللهم ارحمنا برحمتك من أنفسنا .. ومن عبادك.

هذه هى أتوبيسات هيئة RTA أى هيئة النقل السريع أو ما يناظر هيئة النقل العام بالقاهرة أو الأسكندرية أو مرفق النقل الداخلى بالزقازيق قد أكون راغباً فى أن أحدثك كثيراً بشىء (لا يخلو فى نظرك) من التحامل على هذه الأتوبيسات وكيف أن نظام النقل الداخلى فى أمريكا لا يرقى إلى أوروبا بعد أن حدثتك عن اتساع الفجوة الزمنية بين كل أتوبيس والتالى له . وربما لم أعبر لك تماماً عن مدى الرعب الذى يعترينى فى زيارتى السابقة لأمريكا أو فى هذه الزيارة حين أقف فى محطة من محطات الأتوبيس ربما وحيداً تماماً وربما

محاطاً بأحد الزنوج أو بعضهم يأتون بحركات لا تبعث إلا على الرعب وقراءة الشهادتين قبل أن تلقى حتفك .. ربما يكون السبب فى كل ذلك أنى مُقِلٍ إلى أبعد الحدود فى ركوب هذه الأتوبيسات هذه المرة والمرة السابقة ولهذا فلك أن تأخذنى على أننى صاحب انطباعات ولست صاحب خبرة أو رأى .

ولكننى اليوم فقط بدأت أدرى كم تتكلف الخزانة الأمريكية من أجل بقاء هذه الأتوبيسات فى خدمة الطوائف التى تضطر إليها .. نعم كنت اتحدث إليك فيما مضى من فقرات عن أن الاعتماد هنا على السيارات الخاصة ولكنى لم أستطع توضيح الصورة الحقيقية التى لمستها اليوم وهأنذا أفعل كى أكون أميناً على الصورة .ركبت الأتوبيس من محطة ميدان الجامعة أو حلقة الجامعة (حسب الترجمة الحرفية) ، كانت معى تذكرة من النوع الترانزيت أى التى أركب بها أتوبيسين متعاقبين وهى لا تكلفنى إلا دولاراً واحداً هو كما تعلم لا يسمن ولايغنى من جوع فى أمريكا . ركب معى الأتوبيس شخص آخر . نحن الآن فى أول محطة لهذا الأتوبيس الذى يبدأ فى ميدان الجامعة وينتهى فى البيتش وود.

أنت تعلم من فقرة سابقة أنه فيما قبل الساعة الثالثة لا يأتى هذا الأتوبيس إلا كل ساعة مرة. وبعد الساعة الثالثة يأتى كل نصف ساعة .. وتزداد هذه الفجوة أيام السبت والأحد .. ولا يعمل هذا الأتوبيس بعد الساعة السابعة مساء .. أى أنك لن تجده لا فى الثامنة ولا فى التاسعة ... إلخ . تماماً كأتوبيسات الأقاليم فى مصر منذ عشرين عاماً وربما أكثر من عشرين عاماً وفى أيام الآحاد لا تعمل معظم الأتوبيسات وفى أيام السبت تنتهى دورتها فى حوالى الخامسة وثمان وثلاثين دقيقة !!

تسألنى كيف سار هذا الأتوبيس فى تلك الرحلة . سأحكى لك بالتفصيل الممل ، فقد انتظر الأتوبيس حوالى ٧ دقائق فى محطة البداية فلم يركبه أحد

بعدنا . بعـدنا هذه تعنينى أنا وشـخص آخر فقط ، غير السـائق بالطبع. وبعد محطتين اثنتين نزل الشخص الآخر وبقيت بمفردى .. محطتى كانت السابعة أو الثامنة . لم يصعـد أحد قبلها الأتوبيس وبـالطبع لم يهبط أحد .. قررت أن أكمل رحلتى مع هـذا الأتوبيس إلى نهايـة الخط وطوال حوالى عشريـن محطة يستغـرقهـا خط سير الأتـوبيس لم يصعـد أحـد ولم يهبط أحـد .. إذن هـذا الأتـوبيس قام من ميـدان الجامعـة إلى ساحل البيتـش وود من أجل موعـده فحسب . وتحرك هذه المسـافة كلهـا بطولـه وعرضـه ودخله منهـا لا يتعدى دولاراً واحداً .. أقل من ثمن نصف لتر من الوقود .. لن أقول لك أكثر من ذلك .

ليس لى شأن كما تعلـم بـالبيتش وود إنما كنـت أتتبع مسـار هـذه الأتوبيسـات من بـاب ما نسميه فى الـرحلات «بـالجولات الحرة» ، عدنـا من البيتش وود ، لم يكن ينتظرنا هناك أحـد على الإطلاق ، وبعد تحرك الأتوبيس بدقيقة إذا بسائقه يقف به ، هنـاك وراء الأشجار كانت سيدة تشير إليه كانت فى ملابس الـرياضة القاسيـة ، وكانت فى عقدهـا الخامس أو ربما السادس . وكان السائق يعرفهـا ، وصعدت الأتوبيس بملابسـها الريـاضية .. وكان من الواضح أنه ليس معها شىء على الإطـلاق . ربما استغنت بمعرفة السائق لها (وبالتأكيد معرفة المفتش أيضـا) حتى عن أن تحمل الأبونيه الذى يبين أن من حقها الـركوب!! . نعم ياسيدى تبـوأت السيدة مقعدها ، وحـدثت السائق عن رياضتهـا فى ذلك الصباح وبعد خمس محطـات أخرى صعدت سيـدة أخرى بدينـة بإفـراط إلى الحد الذى أثر على قلبهـا بالهبـوط . وتبوأت هـى الأخرى مقعدهـا الذى يبدو أنـه كان مخصصاً لها مـن دون كل المقاعد . وبعـد ثلاث محطات أخـرى صعدت سيـدة سوداء أخـرى . بينها وبين السيـدة البدينـة حـديث متصل بـدأ بـالأمس أو ربما من أمس الأول أو قبل ذلك . والأتـوبيس يمضى بنا حتى جاءت محطتى !! هل الحكومة الأمـريكية مظلومة أو ملتزمة؟

أين يذهب الدعم ياسيدى .. هل هذا إهدار للدعم . الحقيقة أن المظلوم هو شعبنا المصرى الطيب الكريم الذى عانى ومازال يعانى حتى ولو لم نرفع عنه الدعم الهزيل ! .

(٩)

لعلك تريد بعضاً من الحديث عن المرور فى الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد ما سمعت عن طرافته . فعلى الرغم من الشوارع العريضة الواسعة والميادين الأكثر اتساعاً فإن هناك كثيراً من القواعد والحدود التى يجب الالتزام بها . وعلى سبيل المثال فإن إشارات المرور فى كثير جداً من الأحيان مهيئة بحيث تقودك إلى الامتناع عن السير فى اتجاه ما وأحيانا أخرى إلى السير فى نفس الاتجاه !! لا تعجب من ذلك فإن فى النظام الأمريكى ما يجعل بعض الشوارع ذات اتجاه واحد فى أيام العمل وذات اتجاهين فى عطلة نهاية الأسبوع، أو فى غير ساعات العمل !! وقد أعدوا أنفسهم لذلك بأن جعلوا الإشارة تتكون من رؤوس أو نقاط مضيئة . تضىء بعضها على النحو الذى تكون به سهما فتعنى المرور وفى ذات الوقت تضىء نفس الإشارة من الجهة الأخرى على النحو الذى تبدو به على هيئة حرف × فتعنى بالطبع عدم المرور.. وإذا كانت الإشارة تعنى المرور كان السهم رمز المرور مضيئاً بالأخضر . أما إذا كانت تعنى عدم السماح بالمرور كان حرف الإكس بالأحمر .و على هذا النحو أيضاً تجد الإشارة للمشاة . حين تخضر فإنها تقرأ لك بالحروف أنك تستطيع المشى . وحين تحمر فإنها تقرأ لك "لا تمش" !!

ومع هذا فإن من حق أى مواطن يمشى على قدميه (أحب أن أقول من حق كل راجل ولكنى أخشى المطبعة أن تصححها كل رجل فيصبح المعنى مشوهاً تماما كأنه ليس من حق السيدات) ، أقول من حق كل من يمشى على قدميه أن

يكسر الإشـارة ويمشى ، وتحترمـه السيارات مع هـذا تمامـاً. أمـا اللافتـات الإرشادية التى تقودك طوال طريقك فهى نموذج حىٌّ للحضارة الأمريكية التى قامت على الوضوح التام الذى لا لبس فيه. الوضوح الذى يعنى التحديد الذى يكـون القول السـائد فيـه هو «وعلى سبيل الحصر » لا «على سبيل المثـال» .. ولأنهم يأخذون الأمور على سبيل الحصر لا على سبيل المثال فإنهم يقللون إلى أدنى قدر ممكن من المسـائل الخلافية والاجتهادية والتفسيرات المتضـاربة .. تلك المسـائل والأمـور التى تحكم اليوم أكثـر من ٩٩٪ من مشكـلات الإدارة المصرية حين تتصدى هذه الإدارة لمسئـوليتها !! بقى أن أذكر لك أنك تجد عند تقـاطع شوارع المدينـة مع الطـرق التى تـؤدى إلى الطرق السريعـة التى تمر بالمدينة مـن خارجها لافتات تذكـر رقم الطريق . والطرق السريعـة فى أمريكا مرقمـة كله ، أو هـى أرقام فحسب ، وقـد انتبهوا عنـد ترقيمهـا إلى أن يعطوا الطرق التى من الجنوب إلى الشمال (أو بالطول كما نقول) أرقاماً فردية . وأن يعطـوا الطرق التـى من الغرب إلى الشرق (أو بـالعـرض كما نقـول) أرقامـاً زوجية. وهكذا فإنك لن تضل طريقك أبداً .. اللهم إلا أن تكون فى طنطا متوجهاً إلى الإسكندرية فتأخذ طريـق القاهرة الإسكندرية وتصمم على السير فى إتجاه القاهرة إلى أن تكتشف هذا الخطأ بعد بضعة كيلو مترات .

(١٠)

وفى كل ما حققته أمريكـا وما تحققه لا تزال أمريكا حكـومة وشـعباً تؤمن بالكتـاب والمكتبة .. لم يـزعزع هـذا الإيمان الدفين فيهـا أنها هـى التى نشرت التليفزيون وبرامج التليفزيون .. لا تزال المكتبة عند هؤلاء القوم شيئاً مقدساً. والمكتبة هى إحدى المعـالم السياحية البارزة فى كل مـدينة وكل حـى من أحياء

أمريكا، مبناها فخم ضخم تحوطه الحدائق أو مساحات الانتظار، ومواعيدها مناسبة لكل الفئات، والتسهيلات التى فيها لا تخطر ببال.

ومع هذا كله فقد اتسعت المكتبات الأمريكية العامة لمجاراة روح العصر، فأصبحت تعتمد على الكمبيوتر فى الفهرسة والتزويد والاستعارة، وأصبحت تضم قاعات خاصة بالكمبيوتر والبرامج المسجلة على الشرائط المغنطة الصلبة Hard desk ولكن كل هذا من منظور مساعد للكتاب وليس بديلاً عنه. ولا تزال ترى أمارات الخير وبشائر الأمل فى مستقبل هذا الشعب حين ترى الشباب والشابات وفى أيديهم الأعمال الأدبية يقرأونها فى قاعات الانتظار، أووهم قادمون لزيارة المرضى فى المستشفيات.

أما المكتبة الطبية الأمريكية فشىء مبهر وأنا كما ترى أتحدث عنها كشىء واحد ولا أقول المكتبات. وذلك أننى أريد أن أدلك على ما فعلوه بهذه المكتبات حين جعلوها جميعاً تتصل بقاعدة معلومات قوية تهيىء للطبيب (أوالممرضة) أن يتلقى أى مقال يريد أن يقرأه فى خلال يومين على أقصى تقدير، وذلك بفضل برنامج للبحث عن المعلومات يأخذ فى اعتباره المسافة بين موقع الطبيب السائل عن الشىء، وموقع المكتبات التى فيها هذا الشىء، وينتقى أوتوماتيكياً لهذا الطبيب أقرب هذه المكتبات إليه حتى لا تتكلف المكتبة الطالبة كثيراً من نفقات البريد. أحب أن أضرب مثلاً بالطلبات التى كانت أمامى فى مكتبة مستشفى كليفيلاند. فكثير من هذه الطلبات كان موجوداً فى مكتبة جامعة CWRU فى كليفيلاند نفسها. تسألنى ولماذا لا يخطفون رجلهم إلى مكتبة جامعة كيس ويسترن، ويبحثون هناك عما يريدون قبل أن يسألوا عنه الكمبيوتر. فأجيبك فى هدوء وماذا يفعل الكمبيوتر إذا خطفوا أرجلهم، تماماً (مع عكس المنطق) كما يتمنى مصرى أمريكى أن ندخل الكمبيوتر فى مصالح الحكومة فنجيبه ياسيدى القارىء بقولك وماذا نفعل بجحافل الموظفين ؟

وقـد كنت فى غـايـة السعــادة حين أتـاح لى الحظ أن أطلع فى ركن الكتب الموجود فى أحـد المحلات العـامة على مجموعـة كبيرة من الكتب التى خفضت أسعـارهـا إلى أقل من الـدولار، وأسعـدنى أكثر أن أرى بين هــذه المجمـوعـة مجموعات الكتب التى تمثل الحلقات أو المسلسلات التليفزيونية الشـهيرة .

وقد وجدت أن حلقات أيام حياتنا Days of our lives موجودة فى أحد عشر كتاباً على الأقل .. ووجدت مـن مسلسلة " عالم آخر " Another world إثنا عشر كتاباً ومن مسلسل دالاس الشهير أحد عشر كتاباً . ومن مسلسل (بينما يتقلب العالم) As the world turns كذلك والطريف أن الذى يقوم بنشر هذه المجموعات ناشر كندى أو مقـره فى كندا هو Pioneer communication network وتطبع هذه الكميات الضـخمة فى كندا وتحمل علامة تجارية اسمها Soaps & Serials وتوزع كما ترى فى كافـة أنحاء الولايات المتحدة ، وقـد ينزل بها التخفيض إلى حوالى ٦٧ سنتاً أى أن الثلاثة بـدولارين . وتسألنى عن سر سعادتى ، لعلك توافقنى على أن الأدب التليفزيونى لا بد أن يكون مكتوباً وإلا تحول إلى مجرد أداة لملء أو لسد الفراغ بين ألعـاب تليفزيونية مبهرة .. أى بعبارة أخـرى لا بد أن ترقى الفكرة الفنيـة والأدبية فى مـادة أى عمل تليفزيونى إلى درجـة أن تكون قـابلة للصيـاغة فى كتـاب . وربما أعـود لأستفيض معك فى نقاش هـذا الموضوع فى موضع آخر .

(١١)

لا يزال الطعام الأمريكى رخيصـاً وفى متناول الناس جميعاً . ربما لا يزال عندهم ذلك الخير الذى كنا نفخر به فى مصر من دون أن نحمد الله عليه ، حين يكون فى وسعـك مهما كان دخلك أن تجد طعامـاً يكفيك الجوع. وقد كـان من حظى أن أتنـاول الطعام فى عـدد من المطـاعم الـراقية التى تختلف جنسيـات طعامها من المكسيكى إلى اليونانى إلى الإيطالى إلى الفرنسى إلى الصينى ، وذات

مرة قــال أحد أصدقــائنا وكان يابــانياً ألا تودون أن تأكلــوا طعاماً أمــريكياً . ووجدتنــى أعلق أنه لا يــوجد شيئاً أسمــه الطعام الأمــريكى اللهم إلا إذا كنت تقصد تلك الوجبات السريعة من أمثال الهوت دوجز ، والبيزاهت ، والماكدونالد وحتى هذه فإنها تطويــر لأطعمة أخرى فالبيزا هت هى الطبعــة الأمريكية من البيــزا الإيطاليــة ، وهكـذا .. أنــا لا أعرف إن كنــت مصيباً فيما أقــول أم لا .. ولكننى وجــــدت المستمعين من زمــلائى الــذيــن كــانــوا معنـــا فى السيــارة يوافقــوننى... والله أعلم . ولكنى مع هذا أريد أن أحـدثك على سبيل المثال عن هذا المطعم الذى كثيراً ما يزود مؤتمرات قسم البــاطنة العامة بالطعام ، اسمه السيد البطل MR. HERO وقد جعل شعاره المطبوع على الأكياس الخاصة به أنه منقذ العــالم من الأطعمة السريعــة التقليديــة !! تسـألنى عن هذا الإنقــاذ الذى صنـع فـأقول لك إنه يقدم ستة أنواع من السندويتشات يبعث حوالى سبعة من كل نوع فى كيس وعليــه اسـم النوع بــالقلم الفلوماسـتر ، كيس لسنــدويتسات الديوك الرومى [فى البلاد التى تمت للحضارة الرومية يسمونه بالديك التركى وفى بلاد كمصر والبــلاد العربيــة ارتبطت بتركيا يسمـونه بالــرومى] وكيس لسنــدويتشات اللحم البقــرى المحمــر ، وثالث لسنــدويتشــات لحم التونــة ، وخامس لسنــدويتشات الجمبرى، وسادس من نوع آخر مــن لحوم الخنزير وكل سنــدويتش ملفــوف فى أوراق السيــد البطل منقــذ العــالم من الأطعمــة السريعة المعتادة . مع أن مسـألة إنقاذ العــالم هذه فيها نظر!! . وأحب أن أذكر لك كــذلك أن أمــريكــا انتبهت منــذ مــا قبل منتصف الثمانينــات إلى خطــورة استعمال الأكياس النــايلون على البيئــة والغلاف الجوى وعــادت أمريكــا إلى استخدام الأكياس الورقية التى نعرفهــا جميعاً فى مصر ونظنها من بقايا عهد عصر ما قبل الانفتاح .

وفى أمـريكاً يحرصـون الآن تمامـاً على الإفادة مـن الصحف القديمـة فى صناعة الاكياس الورقية. وعلى الإفادة من علب الصفيح الفارغة التى تستخدم للمشروبـات والمأكـولات كـذلك .. وعنـدهم الآن نظـام قـومى إسمـه إعـادة الـــدورة Recycling يقتضيهم أن يجمعوا هذه المواد على بعضها وأن يضعوها فى أكياس مخصوصـة بحيث تذهب بعيداً عن القمامة إلى المصـانع التى تتولى إعادة تصنيعها .. وتجد الأكياس الورقيـة مكتوباً عليها أنها صنعت من مواد «إعـادة الدورة» . وهكـذا .. وأذكر لـلإنصاف أن هـذا النظام متبع فى المملكـة العربية السعودية منذ مرحلة مبكرة وبالنسبة لى فقد رأيته فى السعودية بدون الاسم طبعاً قبل أن أراه فى أمريكا ـ لا أذكر بالتحديد فى أى المرات ٧٨ أم ٨٨ أم ٨٩ ؟ ولكنه أصبح اليـوم بمثابـة حمى جميلة تجتـاح أمريكـا كلها وفى معظم مصالحها وبيوتها وشوارعها أماكن مخصصة لإعادة الدورة Recycling .

(١٢)

و اهتمام مراكز البحوث الأمريكية والجامعـات هنا بموضوع ما قد يصل إلى حد الجنون ! هذه هى حقبة أزمة صدام مثلاً فإذا بالدراسات التى تتناول الموضوع من كل زاوية لا تنتهى . وأنت تعرف أن نظامهم التعليمى فى الجامعة يقوم (فى أغلب الأحوال) على ما يسمى بنظام الساعات المعتمدة فى الجامعات ، وهـو نظام يتيح للطـالب أن يختار مقـرراتـه فى حدود وتكـون النتيجة أنـه ينجذب إلى موضـوع الساعة .. أحياناً لأنه سيجد مواده متوافرة ، وأحياناً لأنه يرضـى فضولـه، وأحياناً لأنه يمهد نفســه لشىء ما فى الوظائف القـادمة بعد انتهاء هذه الأزمة .

وفى كثير من الأحيـان يُعبر الطــلاب من خـلال اختيـارهـم للمـواد التى يدرسونها عن رغباتهم الشخصية وفى هذا المجال يذكر أستاذ مسلم فى جامعة

أمريكية أنه وزع استبياناً على طـلابه فى نهاية الفصل الدراسى وكان من بين أسئلته : لماذا اخترت هذه المادة ؟ وجاءته إجابة طالبة يهودية تقول :-to fight Is lam لأحارب الإسلام، ربما لم تكن تعرف أن هـذا الأستاذ مسلم، وربما كانت تعرف ولا تبالى . وقد تداولت الصحافة العربية فى منتصف الثمانينات على ما أظن ما اسمته بفضيحة التحقيق فى مؤتمر إسلامى فى جـامعة هارفارد مولته المخابرات الأمريكية بخمسين ألف دولار ، و هذا المبلغ كما تعرف مما تقرأ عن المؤتمرات المصرية (لا الأمريكية) ليس شيئاً ذا بال خاصة إذا علمنا أنه شارك فى هـذا المؤتمر مـا لا يقل عن ثـلاثين عـالماً أتى معظمهم من الشرق الأوسط خصيصاً له .

(١٣)

هل نجت أمـريكا من حمى الطـائفية والتفريـق العنصرى أم أنها لا تزال تعانى ؟ سؤال كان لا بد لى من أن أتأمل الواقع أمامى لأجد عليه إجابة . ولابد أن أطلب إليك أن تحاول معى معرفة نسبة السود بين هذا الشعب ، فأحياناً ما يهيىء للمرء منا أن ٩٠٪ من الأمريكان سود على عكس ما قد يعتقده الكثيرون منا أيضاً أن ٩٠٪ من الأمريكان بيض ـــ فى الأتوبيس مثلاً ١٠٠٪ سـود ـ بين طوائف معينة ١٠٠٪ سـود ـ فى الأسواق العامـة ، فى مداخل الفنادق ... إلخ ، وعلى الرغم من أن هذا البلد هو بلد الإحصاءات فإنك لن تستطيع أبداً أن تقتنع بكثير منها .. ومع ذلك فهم يقولون أن ٦٠٪ من سكان ولاية أوهايو مثلاً من السـود والله أعلم .

تأمل بعد هـذا إعلانـات التليفزيون فمن الغـريب أن تجد الإعلانـات وقد قصرت النجـومية على السـود .. هذا إعـلان شهير عن دجـاج كنتاكى فى هــذا

الإعـلان نجـد أبطـال ريـاضـات كمال الأجســـام وكلهم من الســود ، وهم يستمتعون بهذه الوجبـة.وينفثون شرر النار من أفواههم بعـد تناولها ثم إذا بهذا الشرر قادر على أن يضع كـرة السلة فى السلـة بلا مجهـود! مع أن دجاج كنتاكى هذا كما تعرف ياسيـدى ليس إلا كثيراً جداً من المتبلات فوق قليل من الدجاج يكفى بالكاد لإطعام شخص أقل من العادى فيما يتعلق بكمال جسمه أريد أن أسألك هل لا يصلح هـذا الإعلان بنجوم بيض ؟ اعتقـد والله أعلم أن مثل هذه القوة العضلية البارزة لا تـوجد فى البيض أبداً بنفس القدر الذى هى فيه فى هؤلاء الســود الذين يبعثون الشرر القادر بعـد ذلك على أن يخطف كرة السلة ليضعها فى سلتها .

(١٤)

وأخيراً .. أحب أن أقول لك إنه لا يزال عند الناس فى أمريكا [عموماً] شعور الصداقة ، خذ مثلاً هذه المسافـة التى أقطعها فى مرتفعات كليفيلاند فى طريقى إلى الأتوبيس أو إلى السوبـر ماركت أو لمجرد المشى ، ها هـم الناس يبدأوننى بالتحية حتى أولئك الجلوس فى شرفات منازلهم عن بعد .. ولكنهم على النقيض من ذلك حين يكونون فى مجتمع مزدحم . تجدهم متحفظين إلى أبعد الحدود .. وفى المستشفى تجد الزملاء والزميـلات حريصين على أن يطمئنوا على أحوالك كلها : سكنك ، صيـامك ، سفرك ، هوايـاتك ، راحتك .. ولكن ليس من اللحظة الأولى .. وحتى فى الأتـوبيس تجد السائق يفتح معـك حديثـاً عن عملك ، و عن مواعيدك ولكن ليس من المرة الثانية أو الثالثة التى يـراك فيها ولكن ربما من الرابعة . هل أريد أن أقول إن الأمـريكيين ليسوا إنجليزاً ؟ نعم بالطبع .. ولكن هل هـم شرقيون ؟ نعم وربما أكثر من الشرقيين الذين نعرفهم الآن .

الفصل الثانى

أمريكا تستعيد أم تستعير روح العصر

(١)

كان أول سؤال وجهته إلى صديقىَّ اللذين تفضلا بمرافقتى من الفندق إلى المنزل عن هذه الأعلام الأمريكية الكثيرة المرفرفة على كثير من المنازل وكان الجواب : بمناسبة الحرب ، قلت ولكن الحرب انتهت منذ أسبوعين بالنصر، قالا: نعم ولهذا يحتفظ بها الأمريكيون !! . وطوال إقامتى وجدت الشعب الأمريكى وقد أصابته روح جديدة روح تستعيد الانتصار على العراق! وتستعيد بهذا الحدث (الإعلامى) روح الانتصار ! . أما أن أمريكا انتصرت فأمر لا شك فيه .. وأما أن المعركة كانت صعبة فأمر هو الشك بعينه !! ولكن الإعلام الأمريكى لا بد أن يصورها كذلك ليجعل للانتصار معنى ! . أريد أن أقول إنه لم يكن هناك مبرر على الإطلاق لكى تخرج أمريكا من هذه المعركة بغير النصر! ولكن الأمريكيون لا يريدون إبراز هذه الحقيقة لأنهم بإبرازها يضيعون روحاً استعادوها . ثم أظهروا للناس وأنفسهم أنهم استعادوها !! لأنهم كانوا منذ حرب فيتنام فى حاجة إلى استعادتها !! .

روح النصر التى تغمر الأمريكيين اليوم روح مستعارة .. وهم أول من يعرف ذلك .. فأمريكا وجدت نفسها أمام فرصة سانحة ربما لن يجود التاريخ

بمثلها ومن المؤكد أنه لم يجُد فيما مضى بمثلهـا على الإطلاق .. وقـد عاملت أمريكـا الفرصـة السانحة التى أتتهـا كما يتعامل الـرجل كبير السن مع كنز ذهبى لامع يجده فى الطريق الخالى إلا منه فإذا هو مصمم على ألا يتناول الكنز إلا بعد الاطمئنـان تماماً إلى انتفاء شبهـة المفرقعات عنـه ، لأنه لا يزال يـذكر قصة الألغام التى كان العدو يلقيها على الناس على هيئة أقلام وساعات ، فإذا ما انتهى من كل الشكوك استدعى للكنـز الذهبى خبراء المفرقعات ! وأكثر من هؤلاء الخبراء، من دون أن يدفع لهم أجراً من جيبـه ، وإنما هو قد استطاع أن يقنع أصحـاب البيوت المهجـورة القريبـة من موقع الكنـز بأنه لا بـد لهم أن يشاركوه عملية إنقاذه لكنز لأنه يشك فى أن خادمه نسى فى داخل كنزه (الذى وقع منـه !! ... وهكـذا أصبح تعبيره عن الكنـز مصمماً على وصف تملكـه!!) مواداً مفرقعـة قد تودى بحياتهم إذا ما وُجدوا بـالصدفة بالقرب منـه ساعة انفجاره .. وأصحـاب البيوت المهجـورة الواقعـة فى الشـارع الـذى فيه الكنـز يدفعون لخبراء يتولون تطهير الكنز من ألغام وهمية أو شبه وهمية .. والرجل المسن يأخذ نصيباً من أجور الخبراء نظير استجـلابهم من شركة هو المساهم الأكبر فيها .. وبعضاً آخر نظير أجهزتـه التى يبيعها لهم من شركة أخرى هو صاحبها المنفرد ، وبعضاً ثالثاً نظير تعليمهم وتدريبهم فى معهد أمنى يسيطر عليه بمالـه وخبرته .. ومع كل ذلك يحتفظ بـالكنز، ثم يحكى الـرجل العجوز لأولاده وأحفـاده المقيمين فى البعـد كيف أجهـد نفسـه فى التقـاط هـذا النصر الثمين.. بينما كان هنـاك كنز آخـر قريب لـو وفقه اللـه إليه لكسـب أضعاف ماكسب من الكنز الأول .. أقصد بالطبع حل مشكلة الفلسطينين.

على أية حـال فالانتصـار الأمريكى فى حـرب الخليج أيـاً كان حجمـه هو أصدق تعبير عن الشخصيـة الأمريكية اليوم فى مجال الأعمال . وقـد خاضت أمريكـا الحرب وأدارتها من باب علم إدارة الأعمال وليس مـن باب الحماس .

وكل ما حققته أمريكا فى هذه الحرب هو انعكاس أمين لما وصلت إليه أمريكا فى مجال إدارة الأعمال .. وكل ما افتقدته أمـريكا فى هذه الحرب هو انعكاس أمين أيضاً لكل ما تفتقده سياسات إدارة الأعمال فى أمريكا .

وطوال ساعات وأيام ممتـدة كنت حريصاً على أن أصل إلى بعض الأضواء الكـاشفة التى حكمت تصرفـات أمريكـا فى حرب الخليج.. ربما استغـرقت فى تفكير عميق ومتصل فى بعض الأحيـان ، وربما انتبهت على لمحـات سريعـة ومتقطعـة فى أحيـان أخـرى ، ربما أسرفت فى التأمل حينـاً ، وربما أسرعت بالاستنتاج حينـاً آخر ، ربما حاولت تعمق بعض الظواهـر فى بعض الأوقات. وربما اضطررت إلى البعد عن تفسير الظاهر بغير ماهو ظاهر، ولكنى مع هذا استطيع أن أزعم بأن هنـاك عـدة عـوامل حاكمـة كـانت من أهم خصـائص السلـوك الأمريكى فى حـرب الخليج وهـو السلوك الـذى قاد إلى النصر الـذى نعرفه . سواء استعادت أمريكا روح هذا العصر . أو استعادت أمريكا به روح العصر .

- ◻◻ تركيز العمل فى خط واحد .
- ◻◻ النقطة المثالية هى الهدف وليست النقطة القصوى .
- ◻◻ التمويل قبل التخطيط (وبالطبع قبل التنفيذ) .
- ◻◻ التجريب فى نطاقات محدودة .
- ◻◻ التوثيق القابل للاستدعاء الفورى .
- ◻◻ وسائل الاتصالات المتعددة غير المتقاطعة .
- ◻◻ تقبل الأمر الواقع كواقع .
- ◻◻ تقدير الأمثال .
- ◻◻ استثمار اللغة .
- ◻◻ نمذجة السلوك الإنسانى .
- ◻◻ نمو التفكير الرياضى البيولوجى .

هل تسمح ياسيدى القارىء أن أتحدث عن هذه العوامل بشىء من التفصيل :

(١) التركيز فى خط واحد : هذا هو أبرز وصف (أو أصدق) للاتجاه الذى يسيطر اليوم على البيروقراطية الأمريكية فى دواوين العمل وفى البيوت أيضاً .. لا تجد موظفاً يلتفت إليك ولو بالتحية إذا كان مشغولاً مع عميل سبقك إليه .. وأنت تطلب التليفون فيأتيك الصوت من على الجانب الآخر أن انتظر دقيقة قبل أن تتكلم ويحولك إلى موسيقى الانتظار ربما لعشرة دقائق حتى ينتهى الطرف الأخر من حديث تليفونى على خط آخر !! هل هذا هو الهدوء أم هو البرود ؟ قد نختلف فى التعريف والتوصيف .. ولكن العقلية الأمريكية اليوم لا تعمل فى أكثر من اتجاه فى ذات الوقت وقد كانت معركة الخليج نموذجاً حياً للاقتصار على اتجاه واحد فى كل حين .

- □□ الحرب الأهلية تأخذ شهوراً من وقت العالم .
- □□ القرارات الدولية والمشاركات تمضى خطوات لا يعوزها التعقل ولاالصبر الشديدين .
- □□ الهجوم الجوى يستغرق هذه الأسابيع الطوال وليس من هجوم سواه.
- □□ ترتيب الأوضاع يستغرق كل هذا الوقت وبدون نظر إلى شىء آخر.
- □□ الانسحاب يتم كما لو كان مسألة بيروقراطية تجرى على مهل شديد .

(٢) النقطة المثالية هى الهدف : كل من درس التفاعلات البيولوجية والكيميائية يفهم هذا المعنى جيداً ... وسأحاول أن أختزله فى مثل بسيط وهو أن أنسب درجة حرارة لجسمنا هى حوالى ٣٧ درجة مئوية مثلاً .. إذن فليست زيادة درجة الحرارة أو قلتها هدف وإنما الهدف هو الوصول إلى نقطة معينة على المنحنى ، عند هذه النقطة يتم التفاعل المطلوب بأحسن ما يكون من نتائج.

وأتركك ياسيدى القارىء تتأمل موقف الإدارة الأمريكية كلها من حرب الخليج فى ضوء هذه الحقيقة .

- ☐☐ الخلاف الظاهرى الذى لم نسمع عنه إلا بعد انتهاء الحرب بين الرئيس بوش والقائد شوارتسكوف حول تدمير قوة صدام حسين .. وما ظهر للناس جميعاً بعد ذلك من حرص أمريكا الشديد على صدام حسين وبقائه بدرجة محسوبة من القوة والنفوذ!! .
- ☐☐ التعبئة الدبلوماسية فى الأمم المتحدة حتى صدور القرار الأخير بتحديد ١٥ يناير، مع أنه كان فى وسع الحلفاء التبكير بهذا الموعد (على مستوى القرارات) ولكنه كان الموعد الأمثل على مستوى التعبئة الحربية .
- ☐☐ الضوء الأخضر الذى أعطى لصدام حسين فى الوقت المناسب تماماً حين كانت سيارته قد تخطت الإشارة السابقة وأصبحت فيما بين إشارتين.. فأما الإشارة السابقة فقد غفل عنها عسكرى المرور العربى لأنه كان يفقد أداة من الأدوات وهى الديمقراطية .. وكانت حرية الصحافة مغيبة غالباً (وبفعل دينارات عراقية فى بعض الأحيان) . والإشارة التالية كان لها جهاز مرتبط لسبب تكنولوجى بحت بالولايات المتحدة فى غرفة تحكم مركزية .. والناس يرون عمود الإشارة ولا يرون الإشارة .. وقد تفضلت السيدة السفيرة الأمريكية فى العراق فأعطت القائد الملهم انطباعها أو معلوماتها عن طبيعة الإشارة وأنها خضراء. وكانت سيارة صدام مهيئة لعبور الطريق بأكثر مما هى مهيئة للاستجابة للفرامل التى كان صدام قد قلل وعطل وأهمل استخدامها منذ زمن بعيد فى ظل ظروف الإسراع المستمر.
- ☐☐ الجرعات الإعلامية المحسوبة فى تقدير أوهام صدام وأوهام الناس عن صدام مع الاحتفاظ بروح التحفظ عند القادة الأمريكيين .

(٣) التمـويل قبل التخطيط (وبـالطبع قبل التنفيـذ) : قد تستطيع حكومات أو إدارات كثيرة أن تفخر بأنها وفرت التمويل أو نسبة منه قبل البدء فى تنفيـذ مشروع ما .. وفى الغـالب يكون التمـويل جزءاً من التخطيط أو هـو المرحلة الأخيرة منهـا ، إلا أمريكـا، فقد استطاعت هـذه البلاد بقـدرة قادر أن تـروض نفسها على أن تجعل التمـويل أولى خطوات التخطيط إلى الحد الـذى يعرفـه كل المتعاملين مع مشروعـات التعاون المشـترك مع الأمـريكين من أنهم يخصصـون منحـة أولية لإجـراء دراسـة الجدوى قبل البـدء حتى فى طـرح التصورات المتعلقة بأى مشروع. وقد نجحت أمـريكا فى حرب الخليج فى توفير التمويل وبأكثر مما هو مطلوب لكل خطوة من قبل أن تبدأ هذه الخطوة .

(٤) التجريب فى نطاقات محدودة : يحرص الأمريكيون على استخدام ما يسمـونه «موديل» أو «نموذج» للمشروع يبـدأون به ممارستهم لـلأفكار النظرية على الطبيعة . فيكتشفون من خـلاله ثغرات التخطيط، وعيوب النظام القـائم بالهدف . وفى الحرب ربما يصعب تصـور وجـود فرص للتجـريب فى نطاقات محدودة.. ومع هذا فقد سـاعـدت قلة حنكة الرئيس العراقى وحماقته الأمـركيين على إيجاد فرص ذهبيـة للتجـريب فى نطـاقات محدودة .. فكـانت معركة الخافجـى مثلاً نموذجاً مبكراً جـداً لدراسة خطط المعـارك البرية عند الجانب العراقى مما أدى إلى زيادة الثقة فى تطويل أمد الهجوم الجوى .

(٥) المعلومـات والتوثيق القابـل للاستدعـاء الفورى : أمريكا اليوم أعظم الحضـارات قـدرة على الأرشفـة ، ووضع كل شىء فى كل الملفـات التى تتعلق بهذا الشىء . ولكن أمريكا التى تبذل من نفسها كل هذا الجهد فى توثيق كل خطوة وزمنهـا ومكانها وحـالها وقدرها .. إلخ لا تفعل ذلـك من باب حب الأرشفة (أو أداء الواجب كما نفعل) ولكنها تهيىء من كل هذا الأرشيف ذاكرة قوية قادرة سريعة منظمة تستطيع أن تستـدعيها فى ثانية واحدة .. والتسابق

اليوم بين بنوك المعلومات ونظم المعلومات يدور حول المدى المتناهى فى الصغر من الثانية لاستدعاء المعلومات . وفى كل اللحظات التى كان على القائد الأمريكى فيها أن يفاضل بين خيارين كانت بنوك المعلومات تفاضل له بين تلال من المعلومات والبيانات إلى الحد الذى كانت نسبة الخطأ تتلاشى ونسبة الزيغ تنعدم .

ومع هذا فإنى متأكد أنك سوف تطالع فى الشهور والسنوات القادمة انتقادات عنيفة من النواب والشيوخ الأمريكيين للمخابرات الأمريكية ووزارة الدفاع لأنها لم توفر للجيش الذى تولى عاصفة الصحراء معلومات عن تكلفة سندويتشات الفول المصرى التى كان من الممكن نقلها بالطائرة إلى القوات الأمريكية فى عطلة نهاية الأسبوع كبديل ممتاز للكشرى الأمريكى !! بدلاً من انتظار هذا الكشرى من أمريكا فيأتى بعد ٢٤ ساعة من تصنيعه .

(٦) وسائل الاتصالات غير المتقاطعة : نجحت أمريكا فى أن تطور نظم اتصالاتها بحيث يصبح أمام كل زميلين (فى كثير من المؤسسات التى أتيح أن أتأمل طريقة عملها) الفرصة للاتصال ببعضهم من خلال ثلاث وسائل على الأقل . ومع هذا فقد احتفظت هذه النظم بالقدرة على الخصوصية فى الاتصالات بحيث يمكن بشىء قليل من التحكم الفعال إبعاد بعض المعلومات عن متناول الكثيرين وإبقاء هذه المعلومات فى إطار السرية المطلوبة ، وسأذكر على سبيل المثال كيف تطورت نظم الاتصالات داخل القسم الواحد فى المستشفى الواحد إلى الحد الذى لا يستطيع أعضاء القسم ملاحقته ـ ولكنهم ساعة لجوئهم إلى هذه الوسائل يجدون من يدلهم عليها فى التو واللحظة ـ وقد صادفت فى كليفيلاند كلينيك كثيراً من الطرائف حين أتيح لى مثلاً أن أدل اثنين من هيئة الأطباء العاملين هناك على السبيل إلى معرفة ما إذا كان المريض قد أجرى فحص الدوبلر المقرر له الآن أم لا دون الذهاب إلى حجرة الفحص وذلك

من خلال نهاية من نهايات الكمبيوتر اكتشفتها معلقة فى مدخل المعامل كلها .

وهذه المعلومات لا سبيل إلى احتكارها لأن احتكارها يضيع وقت المؤسسة فى سؤال موظف مخصص لاحتكارها وتنظيمها بينما إشاعتها هى الأوفر . وعلى الطرف الآخر كانت هناك معلومات أخرى تتعلق بأمور بيروقراطية بحتة هى فى الواقع أقل أهمية بالنسبة للأطباء ، ولكن النظام لا يسمح باشاعتها وتداولها على هذا النحو ، ومثل هذه المعلومات يصعب على الجميع الوصول إليها إلا أصحاب الخصوصية !! والحديث عن مستويات المعلومات والتحكم فى تدفقها وسريانها يطول .. ولكنى أحب أن يتأمل القارىء معى كل سيناريو حرب الخليج ليتأمل هذه المستويات المتعددة تعدد المعلومات نفسها .

(٧) تقبل الأمر الواقع كواقع وكواقع فقط : أصبحت نفسيات الأمريكيين قادرة على تقبل الأمر الواقع ولكن فى حدود وجوده فحسب .. فالأمريكيون لا يخفون رءوسهم فى الرمال ولكنهم أيضاً لا يسلمون بالحقوق المدعاة من خلال الأمر الواقع .. وعند الأمريكيين قدرة على التجاوز عن الخطأ إذا ما كان فى الانشغال بالخطأ نواة لضياع وقتهم .. وتستطيع مثلاً أن تأخذ مكان غيرك فى الطريق بسيارتك فإذا هو هادىء صامت إذا استطعت أن تفعل ذلك فى غفلة منه ، ولكنه ثائر إذا لمحك وأنت تحاول ذلك فإن الأمر لا يزال بيده أن يمنعك . أريد أن أزيد هذه النقطة وضوحاً فأقول لك إن الأمريكيين يبحثون فى ثنايا الواقع عن بعض الحق ـ ولكنهم يقصرون هذا البحث على الأحوال التى يجدون أنفسهم فيها مضطرين لقبول الأمر الواقع ـ أو فى حاجة إلى وجوده أو قبوله .. فإذا ما انتفت الحاجة للاضطرار ، فالأمر الواقع عندهم ليس إلا شيئاً قابلاً للزوال . وأحياناً أخرى جديراً بالزوال . وأحياناً قليلة واجب الزوال بأيديهم هم !! .

(٨) **تطوير المعتقدات :** للحضارة الأمريكية اليوم قدرة بارزة على التحرر من الحكم والأمثال والأقوال المأثورة التى تحكم الحياة .. قارن هذا بعقلياتنا حين نحاول أن نتأمل المثل العربى القديم على أنه يكون فى بعض الأحيان أقرب إلى منظور «خدعوك فقالوا» وكيف نواجه الفشل مهما كانت خبراتنا وأدلتنا أقرب إلى الواقع و الصواب.

هذه هى مجلة النيوزويك الشهيرة تخصص صفحة كاملة لهذه الأقوال التى تلعب بها البورصة كل أسبوع .. ترتفع بأسهم بوش مرة وتنخفض بها مرة أخرى وهكذا تفعل مع كل الشخصيات ... مستخدمة الأسهم الصاعدة ↑ وأحيانا المتوازية ← → ثم تضع بعض الأمثال الشائعة فى ركن وتضع الأمثال الحديثة التى أسفرت عنها الظروف الجديدة . قد اختصر لك بعض الأمثال التى عدلتها النيوزويك فى عددها الصادر فى منتصف مارس ١٩٩١ حين تتناول شعار المظاهرة الأمريكية الذى كان يقول «لا دم من أجل البترول» ! فتضع بدلاً منه مثلاً جديداً يعبر عن الحقيقة التى انتهت إليها الحرب من الحصول على البترول بلا دم !! .

كان المثل No blood for oil فأصبح المثل Oil for no blood . هل رأيت تعبيراً أبلغ وأكثر قدرة على السخرية والتصوير معاً من هذا المثل المحور!! وهكذا تمضى النيوزويك فى إمتاعك بلاغياً وفى ذات الوقت تضاعف من حزنك على العراق وزعيم العراق!! وهكذا تصبح الحضارة الأمريكية (والأداء الأمريكى فى الحرب) قادراً على أن ينتفع دائما باتجاه الريح حسبما تأتى الريح لاحسبما كان يعتقد فى اتجاهها قبل أن تقلع سفينة الحياة أو سفينة الحرب .

تستطيع أن تبالغ فى التعبير عن هذا الخلق عند الأمريكيين فتقول إنهم لايعبدون إلا الواقع، ولا يعتقدون إلا فى الظروف ، ولكنك لا تستطيع مع هذا

أن تنكر على هؤلاء ثروتهم الضخمة من الأقوال والأمثال الكفيلة بهدايتهم فى بحار الظلمات التى تحيط بالبشرية من كل جانب.

(٩) **استثمار اللغة :** كنت أتحدث فى عشاء رومانسى جميل بين أساتذة رفيعى الثقافة عن فضل الأمريكيين على اللغة الإنجليزية . فقلت إن الأمريكين أعطوا هذه اللغة بُعد « البلاغة » بعدما أعطاها الإنجليز بُعد « الدقة » ... وأنه لكى نفهم هذا الفضل الأمريكى على اللغة الإنجليزية يكفينا أن ننظر الآن مثلاً إلى قائمة الطعام التى سيحضرها لنا القائم بخدمتنا فى المطعم ونتأمل الصياغات المختلفة للعبارات المفترض أنها تؤدى وظيفة محدودة جداً فى وصف أطباق هى فى الأغلب تقليدية جداً .. فقد كان المطعم أحد المطاعم المكسيكية الكلاسيكية . لم يكن الأساتذة الأفاضل فى حاجة لمثل هذا ليوافقونى على رأيى، بل كان عندهم من الفهم العميق ما دعاهم إلى إثبات موافقتهم التامة على مزاعمى هذه.

ولكنى وجدت نفسى أستفيض فى الحديث (بحرفية الأزهريين القدامى) عن بعض مظاهر البلاغة الطاغية فى استخدام الأمرييكين للغة .. فلا تكاد تجد إعلاناً واحداً لا يصلح لأن تضعه فى امتحان البلاغة لطلاب المرحلة الثانوية للبحث عما فيه من مجاز لفظى أو لغوى أو استعارة أو كناية أو تشبيه بليغ على أقل تقدير .. دعك من الجناس والطباق والسجع والمحسنات البديعية التى لا تنتهى .. وقبل كل هذا هناك الأفكار التى لا جدال فى استحداثها حتى وإن جادلت بسهولة فى مغزاها وصحتها .

أحب أن آخذك معى بعض الشىء لأستكمل ما قلت ساعتها من أن الألمان قوم عظماء لا شك وقد أعطوا (شأنهم فى ذلك شأن العرب) لغتهم قدرة عظيمة جداً على "التعبيرية" حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من دقة تعبيرية

بالغـة .. ولكن لا الألمان ولا العرب استطـاعوا أن يستغلوا اللغـة كما استغلها الأمريكيون . فأنت ترى النص القانـونى أو التاريخى فى اللغة الألمانية أو اللغة العربية وقـد صيغ صياغة ممتازة تسمح لك بعـد تأمله أن تتبين الصواب من الخطأ، والمشروع من المحظـور، والواقـع من الخيال ، والمرغـوب من المتروك . نعم تستطيع أن تصل إلى كل هذا من خـلال الصياغة فى بناء الجملـة العربية أوالألمانية فى نسيج النص اللغوى المتاح متى تأملته، ولكنك لا تستطيع أبداً أن تزعم أن هذا النـص الألمانى أو العربى قادر على أن يصدمك بما يـريد بمجرد قراءته .. قارن هذا بما تجده من نفسك من هذا النص الأمريكى المفكك (غالباً) فى صياغتـه حين تجد نفسك قد فهمت منه كل مـا يريد هؤلاء القـوم أن ينهوه بكل ما حملوا اللفظ من إيحاءات ربما لا يستطيع أن يحملها، ولكن الأمريكيين بطريقة ما جعلوه قادراً على هذه الوظيفة.

قـد يضع الأمريكيـون اللفظ فعلاً فى غير مـوضعه . ولكنهم بهذا الـوضع يوفـرون على أنفسهم ثلاثـة سطور كـاملة من التعبير الجميل الـدقيق! . وقد يضع الأمـريكيون بعض كلمات وراء بعضهـا كأنها معطـوفة على بعضهـا ، ولكنهم لا يقصـدون إلا التعبير عن صراعـات بين الأفكـار التى تمثلهـا هـذه الكلمات من دون أن يـزعموا لأنفسـهم ـ حتـى لحظة التـعبير ـ قـدرة على فهم علاقة هـذه الصراعات. ولهذا فهم يكتفون بالفصـل بين هذه الكلمات وبين ما تمثله من معان بتلك الشرطة البسيطة .

أريد أن أقول إن الأمريكيين أخذوا اللغة على أنها وسيلة من وسـائل النجاح فى الحياة والتعـامل اليومى واستغلوها أوسع استغـلال (ولك أن تقول أبشع استغـلال) ربما تبسطـوا معهـا إلى الحدود التى يمكنك معهـا أن تقـول إنهم ابتذلوها تماماً ، وربما تكون رومـانسياً مثلى فتقول إنهم أعطوا لغة الإنجليز البلاغة بعد ما أعطاها الإنجليـز الدقة . ولكنك فى كلا الحالين تبقى موافقاً على أن هناك فـرقاً كبيراً بين هذه اللغـة الإنجليزية فى تلك الجزر البريطـانية وبين

هذه اللغة الأمـريكية فى القارة الواسعـة المسرعة القادرة على تحطيم كل شىء من أجل أى شىء يتصـادف أن يكـون هو الشىء المراد ولهذا فـلا تندهش إذا سألك واحد من الأمريكيين ذات يوم عما إذا كنت تتكلم اللغة الأمريكية !! .

(١٠) نمـذجـة السلـوك الإنسـانى : بلغ تقـدم العلـوم الإنسـانيـة والاجتماعية فى جامعـات ومعاهد الولايات المتحدة الأمـريكية الحد الذى مكن من اتمام دراسات متقـدمة حول كثير من الموضـوعات التى تبـدو لنا وكأنها محكومة تمامـاً بالعامل الشخصى والعامل الـوقتى، وأنه لا مجال أمام العلم لدراستهاعلى نحـو تفصيلى .. من ذلك أن جامعة هارفـارد بالاشـتراك مع عدد من الجامعات القريبـة منها مثل Tufts و MIT أتمت مشروعاً بحثيـاً أسمته "مشروع مفاوضـات هارفارد" وذلك من خلال دراسة قرارات الصراع نظرية وتطبيقاً ، وكان من أبرز نشاطات هـذا المشروع على سبيل المثال تطوير أفكار عملية الوسـاطة ذات النص الواحد التى استخدمتها أمريكا فى مفاوضـات كامب ديفيد من أجل السلام فى الشرق الأوسط (١٩٧٨) حيث كان هناك نص واحد أُجريت عليه تعديلات كانت كفيلة بجعله مقبولاً من الطرفين .

ولعل مما سـاعد هـذه الجامعة التى هى من أبـرز مؤسسـات الحضارة الأمريكيـة على النجاح والتقـدم فى مثل هذه الـدراسات ذلـك الصبر والدأب فى تعمق دراسـة الجوانـب المختلفـة من النشـاط الإنسـانى السيكولوجـى والعقلـى والاجتماعى إلى الحد الذى جعل التنبؤ بـردود الأفعال الخاصة جداً ممكنا جداً.

وعلى هذا النحو استطـاعت أمريكا وحضـارة أمريكا أن تتعـامل فى سهولة ويسر مع كل الأطراف فى حرب الخليج بدءاً من الرئيس صدام حسين ومروراً بكل الرؤساء الآخرين ، مايجور ، و ميتران ، وكافيو ، ومبارك ، وكول ، وفهد والأسد ، والشاذلى بن جديد وأوزال، و انتهاء بالرئيس الإيرانى رافسنجانى

الـذى كـان من الصعب على أى منجم الـوصـول إلى تنجيمة محتملـة لموقفـه وموقف إيران فى كثير من لحظات الحرج الظاهرة فى حرب الخليج.

(١١) **التفكير الرياضي ـ البيولوجي** : و مع أن الأمريكيين قوم عمليون جداً فإنهم فى دراسة السلوك الإنسانى قوم نظريون جداً .. ثم هم فى الوصول إلى قـرار أصحـاب قـدرة على البعـد عن القرار الـواحـد، والتأكيد على البـدائل المتعددة .

سأنقل لك فقرتين من كتـاب اطلعت عليه منذ مـدة فى الإنجليزية، وقـرأته كـاملاً خـلال هذا الأسبـوع بعد أن وجـدته لحسن الحظ قـد صدر فى اللغـة العربية. الكتاب اسمه "نحو التآلف والاتفاق أو بناء علاقات إيجابية" مؤلفاه هما روجر فيشر وسكون براون ـ من تـرجمة الدكتور محمد محمود رضوان وقد أشرفـت الجمعية المصريـة لنشر المعرفـة والثقافـة العالميـة بالقـاهرة على ترجمته وإخراجه ، ونشرته الدار الدولية للنشر والتوزيع (١٩٩١) .

الفقـرة التى يطيب لى أن أدلك عليهـا تتحـدث عن اختـلاف الـرؤى بين مستوى المدير الأوسط ومستوى المدير التنفيذى الأعلى.. ليس فى الفقرة شىء جديد عليك.. أنت تعرف كيف يفكر المدير الأوسط وكيف يفكر المدير التنفيذى الأعلى فى ذات الموضـوع .. لكنى أدعوك إلى تأمل قـدرة الحضـارة الأمريكية على وضـع كل هـذا فى جـدول وبنـاء دراسـات نفسية واجتماعيـة عليـه، ومـدى استغلالـها بعد ذلك لهذه الحقائق فى متن السياسة.

المدير الأوسط : الرئيس يغير سياسته كما تغير الحرباء جلدها .

المدير التنفيـذى الأعلى : الذين يعملـون معى يستجيبون لتـوجيهاتى ببطء.

المدير الأوسط : هناك كثير جداً من الأعمال الكتابية فى هذه المؤسسة.

المدير التنفيذى الأعلى : العاملون يتأخرون فى تقديم تقاريرهم الشهرية.

المدير الأوسط: أنا أعمل معظم الفترات المسائية وعطلات الأسبوع ولكن رئيسى يغادر العمل فى الساعة السادسة مساء.

المدير التنفيذى الأعلى : حينما كنت فى مستواهم كنت أعمل ليلاً ونهاراً لكى أحصل على ترقية .

المدير الأوسط : هذه الشركة تكافىء الخبرة الغريبة ، يحضرون غرباء ليرأسونى .

المدير التنفيذى الأعلى : العاملون الذين ندربهم يهجرون من أجل المنافسة .

المدير الأوسط : ربما أستطيع أن أحصل على دخل أكبر فى مكان آخر.

المدير التنفيذى الأعلى : إننا ندفع أجوراً لعمالنا أعلى بكثير مما كنت أتقاضى وأنا فى سنهم .

المدير الأوسط: عندما أبلغ مستوى أعلى سوف أكون أكثر تحكماً فى حياتى .

المدير التنفيذى الأعلى : ليس لدى مرءوسىَّ فكرة عن الضغوط التى تقع علىّ .

المدير الأوسط: إننا لا نسمع عن السياسات الجديدة أبداً إلا فى اللحظة الأخيرة .

المدير التنفيذى الأعلى : إننى لا أسمع من العاملين معى عن مشكلة يواجهونها إلا فى اللحظة الأخيرة .

المدير الأوسط : إن رئيسى لا يثق بى ؛ إنه دائماً يظر من فوق كتفى.

المدير التنفيذى الأعلى : إننى أحطم ظهرى لكى أقضى وقتاً مع العاملين معى وأدربهم . إنهم لا يقدرون ما أقوم به من عمل .

الفقرة الثـانية تحتاج منك إلى خلـو البال حتى تتأمل طبيعـة المشكل فيها وتصل إلى التفهم الكامل لما قـد نسميه نحن فى حيـاتنا العام بحسـاب الأرباح والخسـائر فى عـلاقـة ثنـائيـة بسيطـة جـداً ... انظـر كيف يستطيع هـؤلاء «النظريون» أن يضعـوا مثل هذا النموذج «الحاد» للصراع «الفعـال» فى علاقة ثنائية كهذه العلاقة .. دعك من كل هذا التقـديم الذى أقدم به الفقرات واقرأها على مهل .

لقد قارن مُنظِّـرو الألعاب ديناميكية العـلاقة الثنائية بنمـوذج يطلق عليه «مأزق المسجـونين» ، ففى إحـدى الأمثلـــة القصصيـة لهذا النمـوذج هنـاك مسـجونـان متهمان بارتكـاب جريمة خطيرة وقـد وضـع كل منهما فى الحبس الانفرادى ، وكان المدعى على يقين من أنهما مذنبـان ، ولكن كانت تعوزه الأدلة الكافية لإدانتهما ، وهكـذا أخبر كلاً من المتهمين أن أمامـه اختياراً بسيطاً : أن يعترف ، أو لا يعترف ، فإذا تعاون المسجونـان معاً ولم يعترف أى منهما، فإن كلا منهما يمكــن أن يتوقع الحكم بـالسجن سنة واحـدة جزاء حيـازة سلاح بطـريقة غير قـانونيـة ، أمـا إذا اعترفا كـلاهما فإن كلاً منهما سيحكم عليـه بـالسجن ثماني سنوات جـزاء الجرائم الخطيرة ، أما إذا اعترف أحـدهما ولم يعترف الآخـر فـإن رافض الاعتراف يمكن أن يتـوقع الحكم بـالسجن عشر سنوات ، ولكن الـذى اعترف سوف يلقى معاملـة رفيقة بـاعتبار أنه «شـاهد الملك» ومن ثـم يمكن أن يتـوقـع أن يطلق سراحـه ويـوضع تحت المراقبـة البسيطـة.. هـــذا مع العلم بأن السجينين لا يُمكّنـان مـن أن يتصل أحـدهما بالآخـر . والآن ، فكل من السجينين يواجه مأزقاً : « إذا كـان الآخر سيعترف ، فمن الخير لى أن أعترف كذلك . إذ أن ثمانى سنوات أفضل من عشر ، أما إذا لم يكن سيعترف فمن الخير لى أن أعترف أنـا ، إذ أننى ـــ حينئذ ـــ سـوف يطلق سراحى برفق ، وهكـذا يبدو أنـه من الخير لى أن أعترف بغض النظر عما يفعل

الآخر ، ولكن إذا اعترفا كلانا فإننا ـ معاً ـ سنكون أسوأ حالاً مما لو رفضنا ـ معاً ـ أن نعترف» .

كان هذا هو مأزق المسجونين فهل تستطيع الآن أن توافقنى على أن هناك ما يسمى بالتفكير الرياضى البيولوجى الذى استطاعت هذه الحضارة الأمريكية حتى الآن أن تجد فى صياغته وأن تجيد وإن لم تكن قد بلورته تماماً بعد !! .

ثم هل تستطيع بعد ذلك ياسيدى أن توافقنى على أن هذا الجانب من الحضارة الأمريكية كان ذا شأن عظيم فى حرب الخليج .. هل تأذن لى ياسيدى أن أختم هذا الفصل بالفقرة الثانية التى وعدتك بك وهى فقرة من خرافات ايسوب الشهيرة عن الريح والشمس: «ذات مرة ثار نزاع بين الريح والشمس ، أيهما أقوى وأشد . وفى سبيل إنهاء الجدال تحدت الشمس الريح فى مباراة : أيهما يستطيع أن يحمل عابر طريق على أن يخلع معطفه فهو الأقوى . كانت الشمس واثقة أنها ستفوز ، ولذلك تركت الريح يأخذ الفرصة الأولى ، أما الشمس فقد اختفت وراء سحابة تنتظر ، وأما الريح فقد أثار عاصفة ثلجية ، ولكن كلما اشتد عصف الريح تشبث عابر الطريق بمعطفه حول جسده ، وفى النهاية لم يسع الريح إلا أن يستسلم ، وحينئذ خرجت الشمس من وراء السحابة وبدأت تضىء وترسل أشعتها بكل قوتها نحو عابر الطريق الذى بدأ يحس الحرارة والدفء ، وإذ أخذت الحرارة ترتفع رويداً رويداً خلع معطفه وجلس فى الظل ليستريح» .

الفصــل الثـالث

كليفيلاند : المدينة والمجتمع

(١)

حوالى ١٧٦٥ أى منذ أكثــر من مائتى عام كان الجنــرال جورج واشنطن أول من تنبأ بهذه المدينة . تعبير غريب طبعــاً أن تقرأ فى تاريخ مدينــة أن فلاناً هــو أول من تنبأ بها . لكننى لا أجــد أدق من هــذا اللفظ لأعبر عن أن واشنطن لاحظ أن مصب نهر كــايهوجا فى بحيرة إيرى ينــاسب مجتمعاً تجاريــاً سريع النمو . بعدها بحــوالى ثلاثين عاماً وفى ١٧٩٦ جاء موسيس كليفيــلاند بفريق من شركة كونكتيكت للأراضى واختار موقعــاً كان يسمى بالاحتياطى الغربى وأقام عليه نواة كليفيلاند .

فى ١٨١٠ أصبحت هــذه المدينة هى المجتمع الــرئيسى فيما يسمى بإقليم كايهوجا. أحب هنــا أن أذكر لك أننى أترجم County بإقليم . وأصل الكلمة فى الإنجليزية فيما يبدو مأخوذة من الكونت ، فالكلمة على هذا تشير إلى ممتلكات الكــونت . وقد تترجــم بمقاطقــة أو إقليم و لعلهــا هى المرادف لــلإقطاعيــات والابعــاديات . و فى أوائل القــرن التاسع عشر بــدأت صنــاعة السفن فى هــذه المدينة. كان لا بــد بعد ذلك من تطوير الاتصــال النهرى البحرى لهذا المجتمع

الجديد ولا بد أن نفهم أن كثيراً من التحضر الـذى أصابته أمريكـا كان نتيجة سعيهـا الحثيث فى تطـويـر مـرفـق النقل والمواصـلات. والطـرق السريعـة والطائرات والمطارات والتليفونات والفاكس والبريد الجوى الأمريكى منذ أوائل القرن التاسع عشر . خذ مثلاً على ذلك إنشـاء قناة إيرى فى ١٨٢٥ ثم توصيل هذه القناة بنهـر أوهايو نفسه بعد سبع سنـوات فى ١٨٣٢. وما صاحب ذلك من ازدهـار صناعـة السفن وتجارتها فى مجتمع كليفيـلانـد الجديد. فى عـام ١٨٣٦ بلغت كليفيـلاند مجداً عظيماً هكذا يـرون أو يروون ... وذلـك: أنه فى ذلك العـام وصل تعـداد سكـانها إلى حـوالى ستـة آلاف نسمـة !!. وهـا هـى كليفيلانـد فى أواسط القرن التـاسع عشر- تبـدأ فى تشغيل مينائهـا فى حوالى ١٨٥٢ وتبرز فى أثناء الحرب الأهلية كمركز صناعى هام وفى ١٨٧٠ تتأسس فيها بفضل جون روكفلر شركة ستاندرد الشـهيرة للبترول وتبدأ معالم المدينة والتحضر والحكـومة المحليـة تأخذ طـريقهـا إلى كليفيلانـد فى مطالع القـرن العشرين. وفى أثناء الكسـاد العالمى العظيم فى الثـلاثينات بنت كليفيـلاند أول مشروع للإسكان الشعبى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

فى السبيعينات حظيت كليفيـلاند بشهرة اقتصاديـة سلبية حين أصبحت أول مـدينـة أمـريكيـة كبيرة تعانـى الإفلاس منـذ الأزمـة الاقتصـاديـة فى الثلاثينات، وتحطمت صناعة السفن فى كليفيـلاند بسبب ارتفاع اليد العاملة ، ولكنها سرعـان ما استعادت وضعهـا فى الثمانينات وأصبحت ثـانية من أهـم المراكز الأمريكيـة . هذه هى كليفيلاند ـــ عاصمة إقليم من أقاليـم أوهايو ، و تبقى لأوهايو عاصمتها كولومبوس.

(٢)

من الطبيعى أن أعدد لك الجامعات فى هذا الإقليم (لا فى الولاية كلها) لعلك طالعت اسم جامعـة كيس ويسترن. هناك كذلك جامعة كليفيلانـد الحكومية

الحكوميـة (أجدنى مضطـراً إلى ترجمة State فى كل اسم جـامعة تحتـوى هذا اللفظ بكلمـة الحكوميـة وكنت فيما مضى أتبع مـا اعتـدنا عليـه فى مصر من ترجمتها بجـامعة ولاية كذا . مع أنـه لا توجد ولاية مثلاً اسمهـا كليفيلاند). تمثل هذه الجامعة انـدماج جامعة كاس وجـامعة ويسترن ريسيرف الذى تم عام ١٩٦٥ ولكن تاريخ هذه الجامعة يعود إلى حوالى ١٨٢٤.

نأتى إلى الكليات العليا :

بالدوين ولاس	أنشئت عام ١٥٤٨
كايهوجا	عام ١٩٦٣
ديك	عام ١٨٤٨
معهد كليفيلاند للفنون	عام ١٨٨٢
معهد كليفلاند للموسيقى	عام ١٩٢٠

(٣)

« البلان ديلر » هى كبرى جرائد أوهايو ، وهى الجريدة التى استعيض بها هنا عن الأهرام القـاهرية كل صباح . وتقع هذه الجريـدة فى مائة صفحة على الأقل كل يـوم ، فـلا تقل صفحاتها الـرئيسيـة عن ٥٠ صفحـة عدا مـلاحق الاعلانات الملـونة التى تبلغ ثلاثة أضعـاف هذا الحجم ، تتضخم إلى أكثر من هـذا بكثير فى أيـام الآحـاد بـالطبع ، ولكـن صفحـات كـاملـة من هـذه المائة مخصصة بالطبع لـلإعلانات ؟ التى لا بد أن تكلفتهـا أقل بقليل من التكاليف المناظرة فى مصر. وإلا فكيف بالله عليك تجد صفحة كاملة قد أفردت للإعلان فقط عن مسحوق غسيل وأنواعه وعبواته المختلفة مثلاً .

استطيع أن أقول لك اننى كنت اطالع هذه الجريدة كل يوم على مرتين ففى حوالى الساعة السابعة وخمس دقائق وقبل أن تتحرك سيارة ربه البيت أطالع

بسرعة أربعة أو خمسة مواضع من الجريدة . أطالع آخر تطورات الحياة الدولية وبصفة خاصة حرب الخليج . أو قل بقايا حرب الخليج من حرب أهلية في العراق إلى أسرار تتكشف في الولايات المتحدة ، هذا في عناوين الصفحة الأولى ، ثم أطالع في نهاية الملزمة الثانية من الصحيفة أنباء الطقس وموعد غروب الشمس أي موعد الإفطار الرمضاني!! وفي الملزمة الرابعة ألقي نظرة على السعر الخاص بالجنيه المصري أمام الدولار في الجزء المخصص لأسعار العملات الأجنبية ، والجنيه المصري على أية حال عملة أجنبية بالنسبة للدولار . دعك من كون العملة الأجنبية عملة صعبة أم لا فهذه تعبيرات مصرية سيكولوجية!! وفي الإعلانات المبوبة ألقي نظرة على الركن الخاص بأجهزة الكمبيوتر .. وفي صفحة برامج التليفزيون ألقي نظرة أخرى على برامج القنوات الرئيسية، وكل نظرة من هاتيك قد لا تكلفني عشرين ثانية كما تعلم. ولكن تصفح المواضع المختلفة حتى تصل إلى ما تريد هو ما يأخذ منك الوقت.

بعد عودتي من المستشفى أقرأ على مهل هذه الجريدة المحترمة ، صياغة الصفحات الأولى لا تختلف كثيراً عن صياغة «الأخبار» القاهرية ، أما العناوين فأميل إلى «الجمهورية» منها إلى الأهرام أو الأخبار. أسماء المحررين والمراسلين تحظى باحترام تام من حيث أبناطها والعناية بها. وكثير من المواد لا تحمل توقيعاً على الرغم من إنها عصارة فكر وجهد مبذول. صفحة الرأي في الداخل لها رئيس تحرير مسئول ، واسمه موضوع فيما يسمى بالترويسة مع الناشر والمدير العام ورئيس التحرير. بل إن الترويسة نفسها موضوعة أعلى صفحة الرأي ولا في الصفحة الأولى . الاشتراك في الجريدة أسبوعي، ويبدو أن الاشتراك السنوي الموجود عندنا لم يعد يناسب روح الحياة السريعة المتغيرة وإن كان سيظل مناسباً لمصر..

يعجبنى فى هذه الصحيفة اهتمامها البارز بالكتب الجديدة وبالحياة الثقافية على وجه العموم، وللصحيفة ملحق أسبوعى لبرامج الإذاعة والتليفزيون يتناول كل شىء من البرامج بالتفصيل، ثم إذا هى تتكرر كل يوم فى الصحيفة فى صفحة كاملة نصفها الأيمن للقنوات السبعة والعشرين (تسعة فوق تسعة فوق تسعة) والنصف الأيسر يلقى الضوء على برامج مختارة وعلى برامج الراديو .

وأحب أن أذكر لك أننى خرجت من مطالعة هذه الصحف الأمريكية بانطباع أن إعلاناتها إعلانات وقتية بمعنى أنها تؤدى الغرض الوقتى ليس إلا. فى أوكازيون يوم السبت تجد صوراً لكل ما هب ودب، والأسعار فوقها، واسم المحل وعنوانه، وكان الله يحب المحسنين . طبعاً الصور منظمة وجميلة والأسعار مكتوبة بأبناط بارزة ولا بأس من فتاة تضحك أو طفل يصيح .. ولكن الإعلان كله على بعضه من لزوم الشىء. مجرد خطوط ، ومجرد تنسيق، وليس هناك مساحة لما يسميه فنانو إخراج الصحف براحة العين، وإنما هو استغلال للمساحة المتاحة بطريقة بدائية. طبعاً هم يعرفون ذلك وأعتقد أنهم يأخذون الإعلان من صاحبه كما يجهزه، هذه مساحة ٣٠×٥٠ مثلاً فالمعلن يحضر لهم الإعلان جاهزاً إلى درجة أن الأفلام مفصولة ألوانها، وهم يطبعونها هكذا.

ولا أبالغ إذا قلت لك إنهم فى جريدة السبت أو الأحد يتحفونك بعشرات الصفحات الإعلانية الملونة ذات الأحجام المتنافرة . وليس لها أرقام اللهم إلا تسلسل خروجها من ماكينات التوضيب فوق بعضها.

والعاملون فى الصحافة يفهمون المسألة فى منتهى البساطة فالصحيفة تستغل انتشارها وجمهورها بأن توزع هذه الإعلانات لأصحابها مقابل

خروجهـا مع الصحيفـة من دار الجريدة ودخـولها معها البيـوت. والمعلنون بالطبع سعداء بما يدفعون للجريدة فهم سيطبعون الإعلان أيما كان الوضـع. وسيدفعون غالياً من أجل توزيعـه بالبريد أو من أجل بث الصبية الصغار به على أبواب المساجد والمدارس كما تفعل البلاد النامية.

وقديماً ، و فى مطلع الصحافة المصرية وقبل حوالى قرن من الزمان كان فى مصر صحيفة توزع بـالمجان إذ تعتمد تماماً على الإعلانات. هنـا فى كليفيلاند توجد أكثر من صحيفة من هـذا النوع. ولكنى أعتقد أنه لا يزال من الأوقع أن تكون الصحيفة بثمن رمزى. ومع هذا فإن جيلاً من مديرى الصحف فى مصر لا يكاد يقـدر نعمة «الثمن الرمـزى» على الصحيفة ويريـد أن يشتط بـأسعار الصحف ما أمكنـه ذلك مع أنهم يعلمون تماماً أنه مهما رفع سعـر الصحيفة فلن يفى بتكاليفها.

يعجبنى فى «البـلان ديلـر» أيضـاً تلـك الكلمات الرصينـة التى تتضمنهـا صفحة الـرأى بل عناوين هذه المقـالات نفسـها حيث التعقل والنظـرة البعيدة بعيداً عن عبارة الـرأى الشائع . وعبادة الرأى الشائع مأساة خـاصـة إذا كان هو رأى الشارع.

ويعجبنى أيضـاً أن الجريدة لا تستنكف شـأنها شأن الصحف الأمريكية أن تعطى لحرب الخليج خمس صفحات أو ست صفحات كاملة ، ولكنى أتألم كثيراً للصور التـى تنشرها عن خراب الكـويت أو تشرد الأكراد أو ظلـم نظام العراق لشعب العـراق ولجيش العراق . يعجبنى أيضـا أن الجريدة خصصت للكاريكاتير صفحـة وجزءاً من صفحة أخرى وأنها تنشر صوراً كـاريكاتيرية لأكثر من عشرين رساماً وكنت أتعجـب هل كلهم معينون ويتقاضـون رواتب أم مثل الـذين يـراسلون مصطفى حسين فى الأخبـار ؟ وحين زرت الجريـدة

سألتهم وعرفت أن هناك نقابة لرسامى الكاريكاتير وأنهم يشترون من هذه النقابة هذه الرسومات.

توزع« البلان ديلر » ٤٣٠ ألف نسخة يومياً وفى الآحاد يرتفع توزيعها إلى ٥٧٠ ألف نسخة، و هى بذلك الجريدة الخامسة عشرة على مستوى الولايات المتحدة . مما يعنى نجاحاً حقيقياً لها إذا تذكرت أن كليفيلاند هى تقريباً المدينة الثانية عشرة من حيث ترتيب السكان. لهذا فإن البلان ديلر فخورة بأنها الأولى فى الاستحواذ على سكان منطقتها إذ يقرأها ٥٨٪ من قراء الصحف فى الاقليم الذى تصدر فيه . وهى الأولى كذلك فى الاستحواذ على سكان منطقتها فيما يتعلق بعددها الأسبوعى حيث يقرأها حوالى ٧١٪ من هؤلاء . وفى هذه المكانة تليها بفارق بسيط جداً (٧١٪ أيضا) الواشنطن بوست.

ومبانى البلان ديلر تم بناؤها فى ١٩٢٠ على سبعة هكتارات ، فى خطة المستقبل أنها ستمتد إلى ٥٠ هكتار إضافية.

ويعمل فى هذه الصحيفة ألف وثمانمائة فقط من بينهم ٣٧٠ صحفى ومعلق وسأذهلك حين أقول لك إن كل هؤلاء الصحفيين يعملون جميعاً فى صالة واحدة تضم ما يزيد على ٢٠٠ كمبيوتر !!.

طبعاً هذه التى اسمها صالة هى الدور الثانى كله . ربما تبلغ مساحتها مساحة أكبر من صالة تحرير الأهرام ولكنها ليست بجمال صالة تحرير الأهرام.. إنما هى مزدحمة ومكدسة ومُقبضة تماماً أيضاً .

منذ ثلاثين عاماً كان عدد العاملين فى البلان ديلر ١٨٠٠ أيضاً ، ولكن مع اختلاف النوعية. فقد كان هناك ٥٠٠ عامل فى قسم اللينوتيب وحده وكان

هنــاك ٢٥ آخرون فى قسم السيتريـنـوتيب. اليـوم ليس هنــاك أحد فى هــذين القسمين لأنه لم يعد لهما وجود .

مدير الشئون العامة يكمل هذا العام ثلاثين عاماً من العمل فى البلان ديلر، وهو يرى أن فى كليفيلاند مؤسستين عالميتين : الكلينيك التى يأتيها الناس من كل مكان، وشركة البترول الكبرى التى لها فــروع فى كل دولة كأنها سفارات . وهو سعيد جداً بالعلاقة بين كليفيلاند كلينيك وبين الصحيفة. وهو يروى لى كيف ضيعت الصحيفــة أكبر خبطــة صحفيـــة فى العــام الماضى حين حصل محررها على تصريح من د.عــاطف صدقى رئيس الوزراء (الـذى كان يجرى فحوصاً فى كليفيلانـد كلينك) بأن مصر ستحارب فى أزمة الخليج مع الحلفاء . ولكن رئيس التحريـر المسئول يومهــا لم يبرز التصريح لا لشىء إلا لأن الذى حصل عليه محرر إقليمى فى كليفيلاند. وفى اليوم التالى كانت عناوين صحف العالم كلها مخصصة لهذا الموضوع بعد تصريحات الرئيس مبارك .

كان من حظى حين زرت البلان ديلـر وطفت بين أرجائها أن التقيت بكبير المحررين وبرئيس القسم الفنى وبمديـر الانتاج وقد أطلعونى جميعاً على كل خططهم ومــاضيهم ولكنى فيما يتعلق بكتــابى هذا لا أجـد نفسى قــادراً على التوسع فى روايــة تفصيلات العمل الصحفى. وفى ذات الـوقت لا أستطيع منع نفسى من تسجيل بعض اللمحــات السريعة عن هــذه الجريدة . و تضم هــذه الجريدة كما قلت لك ٣٧٠ صحفياً وليس فيها إلا صــالة تحرير واحدة تتسع لكل هــؤلاء ولحوالى ٢١٠ كمبيوتر شخصى أمــامهم يستطيعون مــن خلالها الاتصــال بالمندوبين وكتابة ما يريدون وتنظيم ما يسمى بسكرتارية التحرير . مطبعة الجريـدة لا تبدأ العمل إلا بعــد التاسعة مســاء وتستمر حتى الـرابعة والنصف صباحاً ــ وفى أيام السبت والأحد تبدأ المطابع مبكرة منــذ السـادسة لطباعة الملاحق!!

(٤)

فى كليفيلاند أعرق أوركسترا سيمفونى أمريكى داومت على الاستماع إليه فى كل أيامى من خلال الراديو وإن لم أسعد بحضور إحدى حفلاته ولكننى حضرت مع أحد الزملاء الفرنسيين حفلة موسيقية فى جامعة كيس ويسترن الحفلة تحت شعار «موسيقى الجاز فى الشابل» .

الفرقة مجموعة من طلاب الجامعة . اصطلاح طلاب الجامعة هنا لا يقتصر مثل مصر على طلاب مرحلة البكالوريوس ولكنها تعنى كل الطلاب طلاب الماجستير والدكتوراه وهذا الفرنسى الذى يقود الفرقة طالب ماجستير. وقد بدأت الحفلة فى الثامنة و انتهت حوالى العاشرة .. أما عدد الحاضرين فقليل.. ولكن أحداً منهم لا يسلك سلوكاً يجعله أقل من مستوى الحضور .. العازفون سعداء .. والمستمعون سعداء .. وينتهى الحفل فينصرف كل ومعه سعادته إلى حال سبيله .

(٥)

هل ذهبت الفلاتس ؟ لا بد أن تذهب الفلاتس ما دمت فى كليفيلاند! أم لم تذهب الفلاتس بعد!! ستكون فى غاية السعادة إذا ذهبت الفلاتس. هكذا تعاقبت التعليقات مرة بعد أخرى من العائلة التى أسكن بيتها ومن الزملاء الأطباء فى الكلينك، بل ومن الزميل الأرجنتينى الذى كان مثلى يسكن فى هذا البيت فى أغسطس الماضى وجاء لزيارتنا ليوم واحد.

قلت لنفسى لا بد أن أذهب إلى الفلاتس تحفة كليفيلاند، الطريق طويل ربما لأنى قادم من شرق المدينة، والفلاتس فى غربها ولكنه بالفعل بعيد.

القنطرة التى تعبر النهر جميلة إلى أقصى حد ، فخامتها لا توصف، تأمل أن هذه المعجزات بنيت منذ مائة وخمسين عاماً ونحن فى مصر لا نزال ننتشى عند افتتاح كوبرى هنا أو هناك على النيل العظيم ونقول ساعتها : ويعد هذا أطول كوبرى على النيل، وأحياناً أعرض ، وأحيانا نتواضع فنقول أنه يعبر النيل عند أعرض نقطة فى ممره . كوبرى بنها على النيل التى تغنى له داليدا وهى فى باريس « على كوبرى بنها ياانور عينى منديل حبيبى طرف عينى» يتبرأ تماماً من أغنية داليدا ويؤكد للرائح والغادى أنه لم تقع عليه هذه الحادثة أبداً ، وأنه إذا كان ولا بد أن منديلاً طرف عين محبوبة فقد يحدث ذلك على كوبرى آخر إلا كوبرى بنها الاستراتيجى الذى تقف أمامه السيارات فى حالة انتظار وجمود ربما لنصف ساعة .. التيار واقف إذن والمنديل لا يتحرك وبالتالى لا يطرف عيناً حتى وإن كانت عين داليدا .. كوبرى بنها هذا العظيم الذى كان أعظم كبارينا استراتيجية ، الذى بنى فى عهد الملك فؤاد حوالى ١٩٣٢ يتواضع أمام هذا الكوبرى البسيط على نهر بسيط فى بلد بسيط ومع هذا فنحن فخورين بأننا دولة زراعية .. وبلد النيل . وأن عندنا طرقاً زراعية وطرقاً تعبر النيل.

قد تظننى ياسيدى فى حاجة الآن إلى الاعتذار عن هذا الاستطراد الذى لامبرر له .. لكن عذرى أنى كنت أحب أن أصور لك حالتى النفسية وأنا ذاهب إلى الفلاتس بأقرب ما يكون التصوير إلى الحقيقة .. وها أنت ترانى الآن وقد انتابنى الشعور بالتواضع .. وقلت لنفسى والآن سنرى الفلاتس حيث تتواضع أمامه كل فنادقنا وكازينوهاتنا ونوادينا التى على النيل الساحر فى القاهرة.

لن أحدثك عن الفلاتس الذى كانت مضيفتى فخورة به وهى تطأ الأرض ولكنى أؤكد لك أن أى مقهى نيلى متواضع فى أى قرية من قرى مصر العامرة

أكثر حياة ورقياً وفناً وفندقـة من هذا الفلاتس الميت الصامت .. عند هذا الحد زال تواضعى وبدأت أفهم لماذا يقال إن مصر هى بلد السياحة والمتعة الجميلة. هى البلد الذى لا بد للسائح أن يراه حتى وإن كانت الكبارى التى فيه لاتطرف عيون المحبوبـات ، فإن الكباريهات تطرف عيون المحبـوبات . سوف تتهمنى يـاسيدى بـالتحامل على الفـلاتس قـرة عين أهل كليفيلانـد .. لك أن تتهمنى ولكنى سـأذكر لك كل مزايا الفلاتس.

هناك فى جانب واحـد من الفلاتس توجد شجـرة مستعارة من ذات الورق العريض يسمونه Bird of pardise إلى جوارها شجرة أخرى من نوع Oleander هـذا الشجر يحتـوى على مادة مخدرة .. ربما لا يعـرف الطيبون من أمثـالك وأمثـالى أنـه يحتـوى على هـذه المادة المخدرة ويكتفـون بـالإعجـاب بشكلـه المتناسق.. أما أن الشجـرتين مستعارتين فلأننا كنا فى مـارس ولا يزال الجليد هو صـاحب السيادة .. ولما تبـزغ شمس الربيع بعد ...هـذه ميزة من مـزايا الفلاتس .

الميزة الثـانية إن للفلاتس مساحـة واسعة لانتظار السيـارات. ولكن هذه الميـزة تتبخر (أو تتضـاعف فى نظرك) إذا علمت بقيـة قصتها .. فهـذا الجراج يديره مجمـوعة من(البلطجية) المحترمين .. وصلنا إليهم بسيـارتنا فإذا بهم يقولون : لا توجد أماكن بينما الأماكن فسيحة أمام ناظرينا .. فتحت مضيفتى محفظتها الصغيرة ، وشاهدوا أوراق النقد من فئة الدولارات الخمسة .. أو قل على طريقـة المصريين من فئة الشلن .. فقال هـؤلاء إذا كان الأمر كـذلك فهناك أماكن .. أخذنا التذكرة ومضينا بالسيارة قرب باب الفلاتس هنالك أقبل علينا من كشكه الزجاجى حـارس آخر .. أخذ السيارة منا بعد مـا أخذنا تلفونها. و انطلق بها يضعها حيث يريد للنظام أن يتم .. فلما عزمنا على المغادرة لمحنا من كشكه الزجاجى وأتـى لنا بالسيارة حيث وقفنا بالباب.. كـان الدكتور رفعت

حـواس فى محطة مترو الأنفـاق بباريس كثيراً مـا يلفت نظرى إلى حقيقـة أن المترو يقف بحيث يكـون باب عـربة الدرجـة الأولى (التى هى فى الوسـط منه دائماً) أمام فتحة الرصيف مباشرة بحيـث لا يتعب (سعادة البيه) فى ملاحقة عربات المترو!! . الميـزة الثالثة فى الفلاتس أنـه لا يتقاضى منك إلا الإتاوة التى هى غير كافية لأن تكون حداً أدنى لفرد واحد!! .

(٦)

صحيح أن فى كليفيلاند وحولها كثيراً من الأحيـاء الراقية والمواقع المتميزة شبـه الآمنة ولكن كل ذلك لن يبقى فى ذهنـك إلا مرتبطـاً بهذا الرعب من هـذه الجرائم التى لا تستحى وهى تفـرض نفسها كـل صباح فى عنـاوين صحف الصباح وكل ساعة فى مقدمات نشرات التليفزيون المحلية.

كان أحـد أصدقـائنا قـد جاء إلى كليفيـلاند مشبعـاً بما فيه الكفايـة بكل القصص الحقيقية عن الإجـرام هناك .. وحين وصل فى حوالى السـاعـة الثالثة صباحـاً إلى ما كـان يسمى بفندق الجامعـة .. وجد حـارساً أسـود ليس من سلطته أن يتيح لزميلنا أى شيئـاً إلا أن يبقى مع حقائبه فى المدخل حتى يأتى موظـف الصباح ! صاحبنـا يسأل الحارس هل هناك جـرائم قتل ، والحارس يجيبه نعم كثيراً مـا أكون فى طـريقى فيحدث هذا أمـامى هنا مثـلاً، والرعب يستبـد بصاحبنـا ولكن مـاذا فى وسعه أن يفعـل ؟ يستديـر الحارس فيلحظ صاحبى أن فى جيبه شيئاً ما يبرز فى نهايته قبضـة معدنية تماماً كتلك التى فى المطواة المسماة فى مصر بقـرن الغزال .. يقرأ الشهـادتين وينتظر الموت، وفيما بعد يكتشف مع الأيـام أن هذا الشىء الذى فى نهايته قبضة معـدنية ليس إلا المشط الذى يستخدمه الزنوج..

ومن الطريف أن صديقاً ذهب إلى الحلاق فسأله هل تريده على هيئة مربع أو على هيئة دائرة ؟ وبحسن نيـة يظن صاحبنا أنه يسأل على عـادة أصحاب

صالونات الحلاقة فى مصر عن الهيئة التى يكون عليها شعره فى مؤخرة رأسه، ويجيب على هيئة دائرة .. فيفاجأ زميلنا فى النهاية بشعره وقد تحول إلى الهيئة التى يراهـا فى شعر الزنوج صنـدوق مدور من الشعر كتاج فـوق رأس شبه أصلع !!.

(٧)

فى الأسبوع الأول من إبـريل كان علينا أن نقـدم الساعة فقد بـدأ التوقيت الصيفى فى مـدينـة كليفيلانـد، لعلك تظن أن الـربيع قـد حل على المدينـة على الأقل... لا ياسيدى فلا يزال الجليد يكســو وجه هذه المدينة ببياض محبب إلى النفس ولكنـه أحيـانا غير مـريح بـالطبع . ولكنك لا بـد أن تلتزم بـالتـوقيت الصيفى ! فى عز الشتـاء!! إلى هنا وليس فى الأمر شىء . و لكن الطـرفة الكبرى ياسيدى أن مسألـة التوقيت هذه من المسائل الخلافية بين الـولايات، فهناك ولايات تقـدم الساعة وولايـات لا تقدم السـاعـة .. وهكذا تصبح فى حيرة من أمرك وأنت تخاطب ولايـات أخرى بـالتليفون.. فلا بـد أن تحسب أولاً فروق التوقيت الموجودة فى الولايات المتحدة الأمريكية فالتاسعة فى لوس أنجلوس هى الثانية عشرة فى نيويورك ثم تنظر هل تلتـزم هذه الولاية بالتوقيت الصيفى أم لا .. فإذا كانت معك على نفس خـط العرض ولا تلتزم بـالتوقيت الصيفى فهى لازالت فى السـابعة على حين أنك فى الثامنـة، لا تبتئس إذن إذا لم تجد الموظفين يردون عليك فى ذلك المستشفى العظيم فى الولاية الأخرى .. وربما يكون هناك فـرق طبيعى فى التوقيت بحكم خطـوط العـرض فإذا بـه يتلاشى مع تقـديم السـاعـة فى ولاية أكثر بعداً عن الأطلنطـى تقدم ساعة حين تحادثهـا من ولاية على الأطلنطى لم تقدم السـاعة.

لهذا فمن الطبيعى أن تجد الناس يسألون بعضـهم فى التليفون كم الساعة الآن عندكم ؟ وهم ينظرون فى سـاعاتهم! على أن أطرف ما فى موضوع التوقيت

الصيفى ما حكاه لنا الدكتور أسامة سليمان من أن بعض المدن الصغيرة فى كثير من الولايات لا تلتزم فى كثير من الأحيان بتقديم الساعة رغم التزام الولاية كلها بذلك !! لماذا أيها السادة ؟ فيقولون لك حتى لا نزعج البقر الذى تعود على تناول طعامه فى ساعات معينة فى الصباح، فإذا نحن نغير له مواعيده بحكم أن الساعة تتغير فى الظاهر فقط . يقصدون الساعة البيولوجية التى سأحدثك عنها فى موضع آخر من هذا الكتاب.

ها هو الربيع يبدأ فى كليفيلاند وها هى الصحف تزف للناس فى إعلاناتها أسعاراً متعددة للشركات التى تتولى تنسيق الحدائق وزرع الشتلات وها أنا اليوم استمتع طوال الصباح بمشاهدة هذا الجناينى النشيط ومعه الشتلات الجميلة للزهور الصفراء والحمراء والزرقاء ، يحرث الأرض بمحراث كهربائى يدفعه بيده ليس إلا .. صوت مزعج ولكن لا بأس فكل الآلات الأمريكانية مرتفعة الصوت على ما يبدو ، ثم هو ينتقى الشتلات وينتقى لها أماكنها المحددة سلفاً وها هو المنظر يتغير فى أقل من ٢٤ ساعة من شتاء تام إلى ربيع تام !!! صحيح أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.. فهذه الطبيعة ، الجميلة طبيعة حقاً ولكنها غرس الإنسان والطبيعة ، والإنسان من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

الفصل الرابع

فى بيت عائلة أمريكيّة

(١)

لا أعرف بالضبط هل أقع تحت طائلة قانون العقوبات الأمريكى إذا أنا تحدثت بشىء من التفصيل عن البيت الذى عشت فيه مع أسرة أمريكية قرابة شهرين فى كليفيلاند على الرغم من أن الأسرة تعلم تماماً أنى سأكتب عنها وعن بيتها.. وربما تعلم على وجه التقريب كثيراً من مضمون هذا الذى أكتبه.

كنت حريصا عند الترتيب لهذه الزيارة أن أقيم فى بيت عائلة أمريكية لأن قضاء مدة طويلة فى فندق ليس بالأمر التى تتحمله نفسية أى إنسان سوىّ حتى وإن تمنى بعض الناس ذلك فى ساعات ملل من مسئوليات البيوت!!

هذا هو السبب الثالث أما السبب الأول فهو أننى كنت أريد ما يريده كل إنسان على ظهر الأرض من أن يستكشف حياة الأمريكيين فى بيوتهم بعد هذه الصور المتلاحقة التى تطلعنا عليها جميعاً السينما الأمريكية عن البيت الأمريكى الفاخر والاسرة الأمريكية المفككة. أكاد أجزم ياسيدى ولكنى متأكد من أنك تصدقنى إذا قلت لك بدون يمين إن هنا أمريكيين أيضاً يريدون أن

يشاهدوا على الطبيعة صورة ذلك البيت الامريكى التى تقدمها السينما الأمريكية .. تماماً كما أن من المصريين مَنْ يريد أن يتأمل حياة القاهريين الذين تصورهم السينما المصرية وكأنهم لا يعرفون شيئاً إلا كباريهات شارع الهرم. هذان هما السببان الأول والثالث، أما السبب الثانى فسبب شخصى بحت، فقد كنت فى حاجة إلى فترة من الاستجمام البدنى والذهنى والاجتماعى أقضيها فى قراءة القرآن ومذاكرة كتب الطب وكتابة بعض التجارب الذاتية فقط، وكنت أعتقد [ويبدو أننى كنت مصيباً فى هذا الاعتقاد] أن وجودى فى بيت غير بيتى كفيل بهذا .. ولهذا كنت عازماً وقد نفذت ما عزمت عليه على ألا أقود سيارة ، أو أخرج بليل أو أتحدث فى التليفون إلا فى أضيق الحدود. وعلى قدر ما أسعدنى أن تحقق لى هدفى هذا رغم كل الدوافع والمغريات بشراء سيارة أو قيادة سيارة أو استئجار سيارة، فقد اسعدنى بالطبع أنى خلوت إلى نفسى فترات متتالية استطعت أن أكتب فيها ضمن ما كتبت هذا الكتاب.

ولكنى أريد أن أحدثك قبل هذا عن أول الأزمات فى الوصول إلى منزلى الجديد. ذلك أنه فى صباح الأربعاء السابق على سفرى تلقيت بالتلكس فى الزقازيق رسالة فحواها أن العائلة الأمريكية لن تكون قادرة على استقبالى فى الموعد الذى حددته شركة الطيران المصرية فى الثانية عشرة وسبع دقائق بعد منتصف الليل ولهذا فإن علىّ أن أحاول تغيير موعد وصولى إما مبكراً يوم الجمعة وإما فى صباح اليوم التالى يوم السبت. أو أن أقضى ليلة فى الفندق وقد حجزوا لى من باب الاحتياط ليلة واحدة يُلغى حجزها تلقائياً إذا لم أحضر حتى الثالثة صباحاً .

يمر أمام عقلى شريط الذكريات المقروءة حين كان المصريون يسافرون على مصر للطيران فقط ويضطرون لكثير من التغييرات غير المنطقية فى

رحلاتهم من أجل الالتزام بمصر للطيران. وها هى مصر للطيران الناجحة الرابحة تعود فتضطرنا إلى مثل هذا فى مطالع العقد الأخير من القرن العشرين. فهى لا تسافر أمريكا إلا يومى الجمعة والأحد. وإذا فاتتك طائرة الأحد ضاع عليك أسبوع كامل فى أمريكا لأنك حين تصل أمريكا الجمعة فى الرابعة والنصف مثلاً تكون عطلة الأسبوع قد بدأت هناك. ومصر للطيران تدخل أمريكا من باب نيويورك وهو أصعب أبواب الجنة الأمريكية. يكفيك منه أن تقف فى طابور لا يكف عن الانثناء والانحناء يميناً وشمالاً بين مسارات حددوها بحيث يقف فيه ألفان أو يزيد من البشر. تتعجب للرقم« ألفان فى طابور » نعم. هذان الألفان هم ركاب أربع طائرات فقط. تسألنى ومن أين تأتى الطائرات الأربع فأذكرك ياسيدى أن هذا المطار يستقبل طائرة كل دقيقة. لا تتعجب ياسيدى من هذا واستمر معنا فى رحلة مصر للطيران. النتيجة بالطبع أنك لن تستطيع أن تصل من طائرة مصر للطيران إلى أى مطار أمريكى آخر إلا بعد وقت وعناء. وبالتالى فإنهم فى مصر للطيران يحتاطون ويحجزون لك موعداً على الطائرة التى تتحرك من نيويورك بعد وصول طائرتهم بست ساعات على الأقل!! . فإذا خطر ببالك وأنت فى القاهرة أن تطلب إليهم أن يضعوك على طائرة أسبق موعداً أخلصوا لك النصح بعدم التعجل فى مثل هذه المواقف لأنهم لا يضمنون الظروف. مع هذا كله لست (مع أنى أنا العجول الذى تمثله عجلته عيباً بارزاً فى شخصيته الحافلة بالعيوب الأخرى) بالذى يتقبل مثل هذه الخطوات البطيئة .. وماذا يبقينى أنا فى هذا المطار الكئيب الذى هو فى الحقيقة بمثابة مجموعة من الدول (لا دولة واحدة) .. وأنا لا أبالغ فى هذا الوصف. فلكل شركة من الشركات فى هذا المطار شبه مطار مستقل، ولكى تتحرك من مطار إلى مطار هناك أتوبيسات لذلك ومسارات.

وإذا كنت قادمـاً من مدينة نيويـورك أو خارجها بالسيـارة إلى المطار ودخلت بسيارتك فى مســار خاطىء فإنك لكى تعود إلى المســار الصحيح تقضى وقتا طويلاً يكـون كفيلاً بضياع موعد طائرتك عليك.. والعـودة فى اليوم الثانى كى تستقل طائرة الغد.. (وفى حالة مصر للطيران العودة بعد خمسة أيام) .. ها هى طـائرة مصر للطيران تقـوم من بـاريس متـأخـرة .. إذن سنصل نيـويـورك متأخرين ولكن قائدها العظيم يصل فى موعده !! أطلب استثنائى من الطابور لأنى أريد اللحاق بطائرة أخرى أزف موعدها ... وهاهم يجيبونى إلى طلبى بعد أخذ ورد.. وهـأنـذا أمام كتب شركPANAM A فى صالـة الوصول لا أحـد فيه، ولاأحد يرد على التليفون المخصص للاستعـلامات .. وهـأنذا أمام مكتب مصر للطيران، ولا أحد يستجيب من مكتب PANAM ... والحل الذى تسوله لى خبرتى فى السفر أن انطلق بحقائبى من دون أن أسلمها على السير Check in وأن أكون جاهزاً تماماً لصعود طائرة بدون أن أسلم حقائبى مقدماً، وأن أتعهد بأخذها فى طارة PANAM وأن يتقبلوا هم هــذا الوضـع لأنها بحجمهـا الذى دبـرته لن تـزعج متن الطائرة . كل مـا يتطلبه هـذا الحل هو عشر دقـائق من الجرى أو السير السريع (حتى أصل من الـــدوليـة مطـار الشركـات الـدولـة الصغيرة المشـتركة فى مطار أليطـاليا إلى المطار الأفخم للشركـة الأمريكية PANAM) فى صقيع نيـويورك وعـواصفها وأمطـارها لا بأس من ذلك، وأن أكـون حامــلاً حقائبى ولا بأس أيضاً .. مادام ذلك يوفر لى ست ساعات من الانتظار المل فى مطار نيويورك الدولى J.K. Kenndy ولا تقل عنه غير جى أف كيـه .. ويوفر لى أيضا راحة بعد هذه الساعات بأن آوى إلى فراش بدلاً من العذاب المتصل بعد رحلة طيران جاءت بعد ليلة لم أر النوم فيها فى القاهرة إلا متأخراً جداً .

خطر ببالى أنه أحيانا يكـون من حظ الاشخاص الذين ترغب شعوبهم أو دولهم فى تخليـدهم أن تطلق أسماءهم على مؤسســات يكثـر ترداد اسمائهـا

فيكونون محظـوظين بكثرة الترداد وأحيانا أخـرى لايكون من حظ هؤلاء أن تطلق أسماؤهم على منشـآت يكثر تـرداد اسمائها مع شىء من اللعنـة والملل والضيق كما هو الحال مع كل زائر لأمريكا لا بد أن يلعن كنيدى إذا مرَّ بمطار كنيدى وأن يكفر مـن سيئات الدون جوان. أو مع زائر القـاهرة حين تضطره الظـروف إلى طريـق صلاح سـالم حين تصيبه لعنه الازدحـام والتـوقف.. ماعلينا!! . هأنذا أصل إلى مطار « بان ام » وأنجح بمـزيد من التوفيق فى إقناع السيدة المسئولة عن الترتيب فى وضعى على الطائرة المزدحمة، فيما بعد وجدت أن الطائرة حين أقلعـت لم يكن فيها مكان واحـد خال... ربما تعـاطفت معى هذه السيـدة لان اسمها كـان مدام محمـد... زوجها محمد وكفـى ... هل هو مصرى أو أمريكى أو أفريقى أو عربى لا أعلم، هل أسلم أو ولد مسلماً لا أعلم. كل ما أعلمه هو أن اسمها الأخير على البادج محمدا! .

لا بد من هـذا التليفون لا تصل بكليفـلاند ليرسلوا السـائق لاستقبالى فى المطار فى موعـد وصول الطائرة .. ولكى تستعمل التليفون لا بـد من العملات المعدنية. ولا بد من أجل الحصول على العملات المعدنية من ترك حقائبك جانباً والذهاب للحصول على العملات الأجنبيـة من الكاشير المخصص لذلك فى هذا المطار ...... وفقنى الله وأدركت الموظفين فى كليفيلانـد قبل أن يتركوا مكاتبهم ويغـادروها... ووعـدونى من كليفيـلانـد بإرسال السـائق!! . ينتـابنى الآن الغرور لنجـاحى فى كل هذه الخطـوات، بل وأمامى بعـد هذا كلـه فسحة من القوت حتى تقلع طائرتى إلى كليفيـلاند استطيع أن أبدأ الآن الحوار الأمريكى حول كل ما يهمنى الحوار عنه.

................وتصل الطائرة إلى كليفيـلاند وأجد الليمـوزين فى انتظارى على نحو مـا حدثتك فى مقدمـة هذا الكتـاب ، والسائق يقول لى إننـا سنذهب للفندق حيث أقضى هذه الليلة وفى الصباح أذهب المنزل المفترض أننى سأقيم

فيه . لم أسأل السائق بـالطبع لماذا؟ فالمنطق يقول إنه لا بـد أن هناك شيئاً فى الأمر وأنهم قـد رتبوا الأمور على هـذا النحو، مـادام السائق قد جـاء فى الموعد المحدد . ذهبنا الفندق وتركنى السائق.، أنا الآن أمام موظف الإستقبال يبحث عن الحجز الـذى باسمى فـلا يجد، وقبل أن أطلب إليه أن يعـاود البحث كان السائق نفســه واقفاً أمــامى مرة أخـرى يعتذر لانــه عندمــا أعطى لهم التمام باللاسلكى ، قـالوا له إن الطلب الموجود عندهم أن يـوصلنى إلى بيت الضيافة وليس إلى الفندق. ورغم أن المسافـة بين الاثنين حوالى ٢٠٠ متراً إلا أن السائق عاد وحمل حقائبى وتحرك بى وباللليمـوزين حيث وجدت الحجز الخاص بى بالفعل.

انصرفت إلى سريرى فى حـوالى الساعة التـاسـعة بعد وجبـة خفيفة فى ربع سـاعـة، وحمام دافئ فى ربع ساعة أخـرى ، وخمس دقائق أمام التليفـزيون ، وخمس دقائق أخرى فى فتح الحقائب وترتيب ما قد احتاجه من حاجياتى. وفى الثانيـة عشرة تماما وقبل أن تنقضى ثـلاث ساعات على نـومى كنت استيقظ بسبب الساعة البيولوجية التى فى أجسامنا .. هذه السـاعة التى لاتعرف فروق التوقيت ولا يمكن تحريك عقاربها بهذه السهولة التى ضبطنا بها ساعتنا حين وصلنا مطار باريس أو مطار نيويورك، فهذا الجسد يستيقظ فى القاهرة ما بين السـادسة والسـابعة ولا يتأخـر عن السابعـة مهما كان منهكـاً.. فلا بـد أن يستيقظ فى نيويـورك فى الثانية عشرة التى تنـاظر السابعة فى القـاهرة.. مهما كـان منهكـا.. فليستيقظ ثم لينم بعـد ذلـك لا بأس ، ولكن لا بـد لـه من أن يستيقظ !!. وجبة خفيفـة أخرى ومحاولة للحـديث إلى القاهرة بـالتليفون ثم ذهـاب فى النـوم العميق. فى الرابعـة صبـاحـاً استيقظت مرة أخـرى وبـذلت محاولات للنوم حتى السـابعة بلا جـدوى ولم يكن بد من أن استيقظ وافتح الستائر ، ومنذ أن دقت السـاعـة الثامنة صباحاً وأنا أحاول الاتصـال بالعائلة الأمريكية حتى اتفق معها على الموعد الذى يمكننى فيه أن أحظى باستقبالها لى

.. وفى كل حين تجىء سماعة التليفون بصوت مسجل يقـول إن هذا الرقم قد قطعت عنه الحرارة ، نفس الرد الذى سمعتـه منذ كنت فى نيويورك.. حتى إذا كانت الساعة العـاشرة تماماً كانت العائلة هى التى تحادثنى تليفـونياً، سائلة عما إذا كنت قد استيقظـت.. إذن فها هى العائلـة لا تزال فى كليفـلاند. بعـدما كنت قد بدأت مـع زميلى المقيم فى كليفيلاند الدكتور حسـام الشرقاوى البحث عن مكان بديل أقيم فيه.

نعم أنا الذى فى انتظـارك وأنا الذى عانيت من البحـث .. لا علينا .. وماذا عن تليفونكـم .. قالت العائلـة إنها تستعمل شريط الإجابـة الأوتومـاتيكية .. انتابنى العجب ، هل يضع إنسان فى شريط الإجابة عبـارة تقول إن تليفونه قد فقد الاتصـال .. ولكن ليس من حقـى أن أتعجب مبكراً من مثل هذا التصرف ، فأنـا مـازلت رغم كل شىء ضيفـاً أجنبيـاً ... دعينى أعـرف متى يمكننى أن أحضر إليكم بالضبط وأتصل بكم ثانيةً .. ها أنـا قد حددت مع حسام موعداً وأعاود الاتصـال بالعائلـة فإذا نفس الإجابـة فى التليفون مرة واثنين وثـلاثاً وأربعـاً .. فلنصبر وسوف تتحـدث .. حتى إذا كانت السـاعة الحاديـة عشرة تحدثت ربة العائلة .. يا سيدتى تليفونك لايزال معطلاً .. طلبتك أكثر من أربع مرات .. لا عليك ممـا مضى ولكن اطلبى مصلحة التليفونـات .. طيب حاضر ! أرجوك ! حـاول أن تطلبنى مرة ثـانيةٍ مـا إن ننتهى من مكالمتنـا هذه .. لاأمل أيضـاً .. فى الثـانية عشرة خطـر فى بـالى أن أطـالع اسم هذه العـائلـة فى دفتر التليفونـات الخاص بكليفيلانـد ووجدت أن هنـاك صفحة كـاملة من الـذين يحملون لقب هـذه العائلة .. أمـا اسم هذه العائلة فهـو موجود فعـلاً وبذات العنوان ولكن رقم التليفون مختلف .. هنـا سر المأساة إنه ليس مختلف تماماً كما يتوقـع القارىء من اقتران كلمة تمامـاً بكلمة مختلف فى حـديث المصريين عما يتعجبون منـه حين يقولـون مختلف تماماً أو مختلف خـالص خالص ..

إنما كان الاختلاف فى رقم واحد .. ياللـه .. فى ذات اللحظة كانت العائلة الأمريكية تتصل .. انتظرت فقد تعلن بنفسها عن اكتشاف الخطأ لأنها بالطبع لن تسكت فى الساعة الماضية عن بحث هذه المشكلة .. ولعلها طلبت بل لقد طلبت مصلحة التليفونات بالفعل وأجروا لها اختباراً وكلموها من السنترال ولم يعد هناك من احتمال للبس إلا أن يكون الرقم المطلوب (أى الذى معى) خطأ .. وهكذا طلبوا أن أقرأ الرقم المرسل بالتلكس .. وبدأنا مرحلة من التفهم الصحيح .. وحين راجعت الخطابات الأولى التى فيها عنوان العائلة اكتشفت أنها تضم الرقم الصحيح ، وصباح الإثنين حين كان علىّ أن أبدأ عملى كنت أعود من حين لآخر إلى القول المنسوب فيما أظنه للإمام الشافعى عليه رحمة الله .

« إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده »

وحين جاءنى د. حسام الشرقاوى ود. عمر مسعود آثرت أن نبدأ بقراءة الخرائط وكانت مفاجأة .. لو اتبعنا الخرائط فسوف نمضى فى الطريق قرابة أربعين ميلاً إلى طريق آخر يحمل نفس الاسم . ولكن بما أننا جميعاً متأكدون من أن منزل العائلة يقع فى مرتفعات كليفيلاند فلابد من أن نبتعد عن عنوان الخريطة .. وها نحن نعود للفندق فنسأل العائلة بالتليفون . وتبسط لنا العائلة وصف منزلها فعلى بركة الله.

كانت ربة العائلة تقف خلف زجاج منزلها وتشير بإصبعها تصحح لنا .. إن طريق الدخول إليها بالسيارة (Drive) إلى الشمال وليس إلى اليمين .. هكذا حتى تكون قبالة الباب بالضبط .. من حسن الحظ أن حسام وعمر يفهمان تماماً تقاليد الأسر الأمريكية ، وهكذا انتظرا فى الخارج ولم يساعدانى فى حمل

الحقائب ودخول المنزل بها .. ربة البيت تقودنى إلى حجرة نومى فى الدور العلوى وتعطينى فكرة سريعة عن حجرة التليفزيون والاسترخاء الخاصة بى فى البدروم وإلى جوارها حجرة المغسلة .. والمطبخ فى الطابق الأرضى (الأول) ومع هذا أجدنى .. أسرع فى الاستئذان حتى لا اؤخر حسام وعمر على وعد بالاجتماع معها عند عودتى فى المساء أو فى صباح اليوم التالى للاستماع إلى التعليمات الكاملة .

(٢)

وحين عدت فى حوالى الثامنة مساء كان النور مضاءاً فى الطابق الأول .. ولكن العائلة غير موجودة .. لعلها تركت النور مضاءا ليؤنسنى حين أقدم . لابد أنهم نيام الآن فى الطابق العلوى .. أخذت أتحسس خطواتى إلى الطابق العلوى وأنا حريص كل الحرص على ألا آتى بأية حركة .. إلى اليمين حجرة بابها مفتوح ثم حجرتى ثم الحمام وإلى اليسار باب مغلق ثم حجرة بابها مفتوح .. لابد أنهم نيام وراء هذا الباب المغلق . أغلقت باب حجرتى وأخذت أرتب متاعى ... ثم نزلت إلى الطابق الأرضى وأخذت أرتب الأطعمة التى اشتريتها من السوبر ماركت فى ذلك الرف الذى أخبرتنى ربة العائلة فى الصباح أنه مخصص لى فى الثلاجة ، وفى ذلك الرف المناظر فى دولاب الطعام وفى ذلك الجزء الأيسر من الفريزر . كان الفريزر ممتلئاً تماماً رغم سعته .. ومع هذا وجدت مساحة كانت كافية بالكاد للكبد واللحوم والسمك والدواجن التى أحضرتها اليوم .

انتويت الصيام لأول يوم فى رمضان وللشهر كله وأويت إلى فراشى . وفى حوالى الثانية عشرة استيقظ جسدى لأنه تعود على ذلك بفعل الساعة

البيولوجية كما أخبرتك وليس هناك من أمل فى أن يعدل عما اعتاد عليه بين يوم وليلة ، فى الخامسة والنصف استيقظت لأداء صلاة الفجر وظللت فى حجرتى حتى التاسعة ، فى التاسعة تماماً كنت فى الطابق الأرضى حيث وجدت ربة العائلة لاتزال فى المطبخ تتناول قهوة الصباح ، وبدأنا الاجتماع، هذه ورقة طويلة بالتعليمات وناقشناها معاً .. لن أذكر لك تفاصيل كثيرة .. ولكنى سأدلك على بعض ما يهمك من أمر الحياة الأمريكية اليوم ، وقد تكون عندك فكرة أسبق منى ، ولكنى سأحدثك بانطباعاتى حتى لو اتهمتنى بالتخلف .

يبدو أنه لم يعد لجهاز البوتوجاز مكان فى المطبخ الأمريكى .. فالاعتماد اليوم على جهاز الميكروويف .. وعند هذه العائلة جهاز جديد .. ولكن كيف يمكن لى أن أعتمد عليه فى إعداد شرائح الكبدة المحمرة .. التى تحتاج زيتاً مقلياً؟ ربة البيت تتناول المرجع المناسب الموجود فى مكتبة المطبخ .. وفى المرجع المذكور أننى فيما يختص بالكبد بحاجة إلى تشغيل الميكروويف لمدة دقيقة ثم إلى أن أترك الطعام فى الميكروويف ١٥ دقيقة أخرى .. بينى وبينك لم اقتنع تماماً . ونويت أن ألجأ إلى الوسيلة القديمة إلى موقد الغاز الكهربائى .. هل انتابتنى الشيخوخة أنا الذى لم يترك جديداً إلا جربه .. لا يا سيدى اليوم أول يوم فى الصيام وليس عندى فرصة أخرى لطعام آخر .

ولكن الأمر حُسم بطريقة أخرى فحين أقبل المغرب كانت ربة البيت على رأس مائدة الطعام بالقرب من المطبخ ومعها ثلاث من صديقاتها وأصبح من الصعب علىّ أن أتقبل أن أزكم أنوف هؤلاء جميعاً ببخار الزيت المقلى .. حتى مع وجود هذا الشفاط الذى اتفقت منذ الصباح على تشغيله بمجرد البدء فى استعمال موقد الغاز .

لن أقول لك إن الكبدة بالميكروويف كانت أحلى كبدة فى حياتى ولكنها

كانت بلاشك قريبة من هذا المعنى . إذا كان لك أن تسألنى عما فعلت فى هذه الكبدة قبل أن تدخل إلى الميكروويف فإننى ألخص لك القول بأنها غمست تماماً فى الفلفل .. وأحيطت بزيت المازولا الشهير .. وبدعاء الصائم المضطر المغترب !!.

عودة إلى أول صباح لى فى المنزل : فى الضحى فقط وحين انتهت ربة البيت من اجتماعها تركتنى لتعود بعد حوالى نصف ساعة فى ملابس الخروج.. ساعتها فقط أدركت أن حجرة نومها هنا فى الطابق الأول .. أما ذلك الباب المغلق فلم يكن وراءه [طبقاً لما فهمت بعد ذلك من ورقة التعليمات] إلا المكنسة الكهربائية .. وأدوات التنظيف .

للعائلة ابن هو ريتشارد وابنة هى كريستين . الولد هو الأصغر ويعمل معملياً فى إحدى مستشفيات سلاح الجو الأمريكى . والإبنة كريستين ٢٦ عاماً متزوجة وتعيش فى كولومبوس أما ربة البيت نفسها فإخصائية اجتماعية . تعمل فى إحدى جمعيات مرضى السرطان فى الجانب الغربى من المدينة .

(٣)

دعنى أحدثك بعد ذلك عن روتين الحياة اليومى فى بيت العائلة الأمريكية . بالنسبة لى كانت هذه السكنى النموذج الأمثل لما أريد ، لن يضيع وقتى فى حكايات عن الوطن البعيد مع زميل مصرى ـــ سأعيش الثقافة الأمريكية بمعنى الثقافة الواسع كأسلوب حياة وهو ما لا يتاح للمرء إلا إذا عاش معهم فى بيوتهم وخارج بيوتهم لا فى مجرد العمل وساعاته فحسب ـ بالإضافة إلى هذا هناك فاصل واضح بين حجرة النوم وبين حجرات الطعام والمطبخ

والمعيشة ـ على حين أن شقق الحجرة الواحدة (الاستوديو) تكدس كل هذا وتكرسه فى مساحة محدودة قد تكون واسعة ولكنها موحدة على كل حال .

فى حجرتى كرسى مريح ومكتب أكثر راحة ، ودولاب حائط ، ودولاب آخر، ومنضدة إلى جانب السرير ومكتبة فى الحائط ـــ كل ما ابتغيه تقريباً . كل صباح هناك جريدة وقد تعودت أن أقرأ صحيفة الصباح حتى فى البلاد التى لا أعرف لغتها جيداً ، واعتقد أن مجرد تصفح صحف الصباح لا يحتاج معرفة اللغة . هناك مطبخ حقيقى وليس مطبخاً يتكون على عجل وفى حالة طوارىء .. صحيح أننى لست مداوماً على الطبخ المستفيض إنما هى وجبات عاجلة تعودت عليها منذ بدأت اغترابى منذ أكثر من ١٧ عاماً ولكن لابد من مطبخ من أجل إذا قدر .. أو كما يقول الأمريكان In Case ، يقصدون من باب الاحتياط . هناك أدوات للنظافة على حين أنك فى الشقة الصغيرة ستجد نفسك مضطراً لتنفيذ كل عمليات النظافة بأداة واحدة .. أى أداة تقع فى يدك قبل غيرها ـ فلا مانع من أن تكنس بالمساحة أو تمسح بالمقشة .. إلخ). هناك الشعور بالوجود فى بيت وبالانتماء إلى أسرة .. هناك من تفكر فى أنه سيسالك إذا تأخرت فى المساء عن عودتك ـــ هذا الشعور يريح الذين نشأوا على نشأة تجمع بين الفطرة السليمة والحرية الحقيقية . هناك الشعور بالانتماء إلى مجتمع بكل ما يحمله موقع البيت والمنطقة السكنية التى هو فيها من معان .. هناك بعد ذلك كل الخبرة بتأثيث البيوت وترتيبها والإفادة من أركانها وتوظيف المبانى للمعانى والمساحات للأغراض ولمسات الفن الجميل سواء فى التشكيل أو التكوين أو الزخرفة أو الزهور أو الأثاث أو الألوان أو الترتيب .. فى السابعة وعشر دقائق تفتح ربة البيت باب جراج السيارة بالريموت كنترول بينما هى لاتزال فى المنزل ثم تنزل إلى سيارتها فتبدأ فى إدارة محركها وتتركها وتعود لتستأنف ترتيب ما تأخذ من متاع معها وقبل السابعة والربع تتحرك

بالسيـارة إلى الخلف ريثما أغلق أبواب المنزل بمفـاتيحى وأستقل السيارة فى الكرسى الأمـامى بينما الصديق والزميل البـولندى الذى يسكن عند العـائلة المجاورة قد سبقنى إلى الكرسى الخلفى أو يلحقنى فيه .

فى السابعة و٢٢ دقيقة أكـون فى المستشفى وتستأنف ربة البيت طريقها إلى عملها ــ حوالى ٤٥ دقيقة . وتبقى هنـاك حتى الخامسة مثـلاً ، وتعرج فى طريق عودتها على من تريد من أصدقـاء أو مصالح . أما عطلة نهاية الأسبوع عندها فهى كذلك حافلة بـالعمل والنشاط . فى نهاية أسبوعى الأول كانت على موعـد مع والدتها .. على بعـد ١٥٠ ميل من كليفيلانـد .. ولهذا سافـرت منذ الخميس ، غابت الجمعة والسبت ــ وجاءت فى مساء الأحد .. كان هذا الأسبوع يناظـر عندنا عيد الأم فى مصر ولكنـه لم يكن كذلك فى أمريكـا ومع ذلك كانت هذه السيدة عنـد والدتها محملة بكثير من الهدايا !!. فى نهايـة أسبوعى الثانى كان عيد الفصح يـوم الأحد .. وكان عيد ميلاد أقرب صـديقاتها إلى قلبها يوم السبت . فى نهاية الأسبوع الثالث كان عليهـا أن تسافر إلى بيتها الريفى حيث دعت أخيها وخطيبتـه لقضاء عطلـة نهاية الأسبـوع هناك حين قـابلتهم عند والدتها قبلها بأسبوعين .. سافرت ربة البيت صباح الجمعة ولكنها كانت منذ ظهر الخميـس مشغولـة باستقبال ثـلاثة ضيـوف هم ابنتهـا وزوج ابنتها ووالده الذين خرجوا فى سيارتين من كولومبوس فى وداع الأب المسافر إلى كندا عبر كليفيلاند .

وليس هذا هو كل السفر فى حياة ربة البيت التى قاربت الستين . ففى أحد أيام الخميس كـانت مسافرة إلى تـوليدو ، لتحضر نـدوة موضوعهـا « النكتة كجزء من العلاج » ، لك أن تعجب من أن تسافر هـذه السيدة كل هذه المسافة لتحضر مثل هذه الندوة حتى ان احترمت مـوضوعها باعتباره موضـوعاً هاماً حتى وإن بدا من اسمــه أنه موضوع كـاريكاتير عن ندوة لا موضــوع ندوة .

ولكن عجبك يزول إذا علمت أنه لابـد لهذه السيدة شأنها شأن كل الأمريكيين الذين يمارسون مهناً من أن تنتظم فى برامج ما يسمى [التعليم المستمر] حتى تكون قادرة على أن تستمر فى أداء مهنتها والبقاء فى وظيفتها .

وعلى كل الـذين يمارسون المهن المختلفـة فى الولايـات المتحدة أن يبحثـوا بأنفسهم عن النـدوات وأن يحضروهـا وأن يسجلـوا حضـورهم بشهـادات تتضمن هذه الشهـادات قيمة هذه الندوة من حيث السـاعات المعتمدة حسبما تقدر الهيئة المشرفة على ممـارسة المهنة . فإذا كانت هذه السيـدة مثلا مطالبة بخمسين ساعة فى العام من التعليـم المستمر فإنها لابد أن تحضر عشر ندوات من مثل هـذه النـدوات التى قدرت لها نقـابـة الاجتماعيين [مثلاً] أو اللجنـة الدائمة للوظائف الخاصة بـالخدمة الاجتماعية [مثلاً] أو جمعية الاجتماعيين [مثلا] خمس سـاعات فى مقيـاس ساعـات التعليم المستمر حتى وإن كـانت الندوة تستمر لمدة ١٢ ساعة ما بين مناقشات ومحاضرات واجتماعات ... إلخ.
هذا هو تعليـم الكبار أو التعليم المستمر .. وفيما مضى ومنذ حـوالى ١٢ عاماً بدأنـا فى مصر برنـامجاً للتعليم الطبى المستمر ثم أجهضنـاه شأن كل أجنتنا التى نجهضهـا دون أن نستشعر حـرمـة قتل مـا من شأنـه أن يكون زادنـا وثروتنا فى تطلعاتنا نحو المستقبل .

(٤)

جانب آخر من حيـاة ربة البيت الأمريكية أريـد أن أحدثك عنه بشـىء من التفصيل وهـو اهتمامها بـالثقـافة والكتب ، ففى الحجـرة الـرئيسية مكتبـة صغيرة ، وفى دولاب حجرتى مكتبة أصغر ، وفى الحجرة المجاورة مكتبة أصغر وأصغر ، وفى الطـرقة التى أمامهـا مكتبة صغيرة أيضاً ، وفى الحجرة الـرابعة مكتبـة أكبر من الصغيرة . وفى المطبـخ مكتبـة مطبخ صغيرة ، وفى حجـرة

الاستقبال شبه مكتبة أيضاً ، أكون مبالغاً إذا أهملت الجانب الآخر من الموضوع ولم أحدثك عن أن المكتبة من هاتيك الصغيرات لا تضم أكثر من عشرين كتاباً ، وأن مكتبات الدور العلوى كلها فيما يبدو حصيلة الاهتمام المفرط للابن بالسيارات ـ فعنده موسوعة السيارات عاماً بعد عام ـ وكتاب عن سيارات العالم ، وآخر عن سيارات أمريكا وأعداد من مجلة Hot rod وهى مجلة للدعاية للسيارات تضم أو تتعاقد مع ست من الحسناوات ، والمجلة تصور كل سيارة وعليها أو فيها أو على طرفها أو بجوارها فتاة عارية إلا قليلاً .. هل يا ترى يعجب القارئ بالسيارة من أجل السيارة أم من أجل الفتاة التى معها ؟ لست أدرى .

أما مجموعة كتب المطبخ التى عند ربة البيت الأمريكى فشبيهة بمجموعة كتب الطب عند الأطباء المصريين الشبان ، تجدهم رغم كثرتها يحتفظون بورق صغير يصورونه من هنا وهناك ويعتمدون عليه فى بعض عملهم . هذا هو ما حدث حين جاءت ربة البيت باعتزاز شديد بثلاث ورقات مصورة من مرجع ليس عندها منه نسخة وشرعت فى عمل (كيك القهوة)!!. أما كتب ربة البيت نفسها تلك التى تستحضرها من حجرة نومها فتحدثك عن ثقافتها الحقيقية ــ فعند ربة البيت أكثر من موسوعة تلجأ إليها فى الحصول على المعلومة التى نختلف حولها ، أو تحتاج إليها . وعندها مجلدات قيمة لأعمال أدبية من التراث العالمى ، ربما تحتفظ بها كما تحتفظ أمريكا ببعض هذه الأشياء فى متاحفها القومية !. وعندها المجموعة الكاملة للمجلة العلمية للإخصائيين الاجتماعيين . وعندها أيضاً مجموعة متفرقة من الكتب فى الفن والتاريخ والآثار وعندها كتابان فى الموسيقى .

أنا لست مبهوراً بمكتبة ربة البيت الأمريكية ـ ولست فى نفس الوقت مستخفاً بها إذا قارنتها بأى من مكتباتى ولكنى أريد أن أحدثك عن أن الأمور

لا تقدر إلا فى إطارها الصحيح . فإن الأمريكيات المتعلمات التى فى سن هذه السيدة قليلات إذا ما قورن بالأوروبيات من جيلهن أو حتى بالأمريكيات من الجيل الذى بعدهن. ولابد أن تعرف أن فى أمريكا أمية ولابد أن أحدثك أن علاج الأمية فى أمريكا هو رابع المستحيلات لا أحدثك بذلك رثاء للأمريكيين ، ولكن لأذكرك أننا فى مصر والبلاد العربية على وشك الدخول فى ذات المرحلة من استعصاء الأمية على الحل .. تسألنى لماذا ؟.

أظنك لست بحاجة إلى السؤال فهذا التليفزيون بقنواته الأربعين والفيديو من خلفه ـ ثم هذا التليفون ومن خلفه دائرة المعارف التليفونية المجانية كفيلان بأن يتيحا للأمى كل ما كان يستشعره من نقص يدفعه إلى تعلم القراءة والكتابة، ليقرأ كتاباً أو صحيفة مثلاً أو فاتورة أو إيصالاً أو عقداً ، أو ليكتب خطاباً إلى إبنه المقيم على بعد ، أو طلباً للحكومة المحلية !! ها هو التليفون وها هو التليفزيون يشبعان فى البشر الحاجة إلى المعرفة من دون أن يمتلك المرء القراءة التى كانت أداة البحث عن المعرفة .. أعرف أننى أسطح الأمور وأننى اتجاوز حدودى حين اتناول المعرفة مثل هذا التناول السطحى، وحين اختزل الحاجة إلى المعرفة إلى هذه الأمثلة البسيطة .. ولكن الحقيقة التى لا شك أنها تصدمنا جميعاً هى أن هذه المعرفة التى تراها أنت وأراها أنا سطحية هى كل ما يهم الأمى وأكثر مما يهم الأمى. وإذا شبع الأمى بهذا وتوقف عند هذا فلن يشكو لك ظمأ ولا جوعاً .

أليس فى وسع الأمريكى الأمى أن يتحصل اليوم من بين أفلام القنوات المتعاقبة فى التليفزيون الأمريكى على مشاهدة خمسة أو ستة أفلام كاملة.. هل كان فى وسع المثقف فى القرن التاسع عشر أن يقرأ روايات هذه الأفلام جميعاً فى شهر واحد!! أليست ساعات معدودة أمام التليفزيون كفيلة بأن يطالع الأمريكى ما يناظر ست صحف أمريكية يومية مختلفة الألوان والاقلام والاتجاهات؟ .

نعم يـاسيدى تبقى أنت وأبقى أنـا ويبقى كثيرون معنا لا يستغنـون عن قراءة الصحف ولا عن مطالعة الـروايات ولكنى أحدثك عن السواد الأعظم فى عصر أصبحت الثقافـة فيه متأثرة إلى حد بعيـد بفلسفة الـ Mass ولكن إذا لم تكن تأملت المعنى الحرفى فى اللغـة الانجليـزية فـاعلم أنها لا تعنى إلا وسيلـة الاتصال بالسواد الأعظم أو بالكتلة الكبيرة.

(٥)

هل أحدثك بعد هذا كله عن المنزل الأمريكى من مطبخه ربما كان من حقك علىّ ومن حق المنـزل الأمريكى علىّ كذلك أن أتحدث عنـه بشىء من التفصيل هو الآخر . فهذا هو مطبخ العائلـة لا يكاد يتسع للدواليب التى فيه، ودواليبها لا تكاد تتسع للأرفف، والأرفف لا تكاد تتسع لما عليها.. من كل حجم الأطباق أكثر من ٥٠ ... وهناك أكثر من ٥٠ ملعقة وأكثر من ٥٠ شوكة وأكثر من ٥٠ سكينـة ... عن المقـالى حدث ولا حـرج ... أدوات الميكـروويف ، أوانى لفـرن البوتاجاز .. أوانى للموائد الفخمة .. أوانى للموائد المتواضعة .. علب من جميع المقاسات للثلاجة وللميكـروويف .. علب أخرى للبهارات .. علب لوازم الآيس كـريم .. علب لـوازم الكيك.. علب لـوازم المائدة والسرفيس .. أدوات كبيرة وصغيرة .. أدوات للخلاطـات .. والماكينات المختلفـة.. أوراق مفضضة لحفظ الأطعمة المطهية وأخـرى سلوفانية وأخرى ورقيـة . مساحيق الغسيل تفوق العشرة.. أطقم التـوزيع لا حصر لها.. الفناجين يتعـدى عـددها يتعـدى المائة وكذلك الكئوس ولكلٍ استعماله، هذا للمشروبات .. هذا للشاى .. هذا للقهوة .. إلخ.القهـوة نفسهـا أنـواع .. المحمصـة أنـواع كثيرة، بعضهـا يحفظ فى علب بلاستيكية، وبعضهـا فى أكياس ورقية، وبعضها فى علب معـدنية ، و بعضها جاهز مبـاشرة لماكينة القهوة... أوان متنوعـة للعصـائر المختلفة، وأقول لـربة البيت إن عندهـا أشياء كثيرة جداً جـداً لأشياء كثيرة جداً جـداً .. فتسعد بهذا

التعليق ولكنها تردف بالقول بأنها مسألة عمر فمع مرور الزمن يضيف الانسان إلى ما عنده .

كان على فى هذا المنزل أن استوعب تشغيل أكثر من عشر آلات :

١ ـ الغسالة الكهربائية ونظامها مختلف تماماً عن غسالتى وكلما أحكى عن وجوه الاختلاف تعجب ربة البيت لهذا التقدم الاليكترونى الذى أصاب الغسالات!!

٢ ـ المجفف وربما كان أمره أسهل الأمور لأنك تضبط ساعته وتنظر فى النهاية هل جففت أم لا ؟والحقيقة أنه لايجفف فحسب وإنما يحمص الملابس.

٣ ـ البوتاجاز الكهربى وربة البيت حريصة أن تجعلنى استعمل الشعلة المناسبة لما أعمل بينما أنا كعادتى استسهل الشعلة الأمامية اليسرى لأنها فى متناول يدى عن يمينى، وتعطى ما أريد، ويمكننى التحكم فيها بالقليل، ولكن ربة البيت لا توافق على هذا المبدأ لأن نتيجته ستكون ضارة بحواف الأوانى الصغيرة التى توضع على هذه الشعلة فيصيبها اللهب من أطرافها أو بسطح البوتاجاز من حول الشعلة حين يصيب رذاذ الوقود واجهة البوتاجاز التى عليها عدادات الحرارة!!

٤ ـ الميكروويف . وقد سبق لى أن صارحتك باعتقادى أنه لن يصبح هناك محل للبوتاجاز إذا تطور هذا الميكرويف فى السنوات القليلة القادمة على أيدى اليابانيين و بأموال الزبائن العرب.

٥ ـ التليفزيون و هو أسوأ الأجهزة لأنك لا بد أن تكبت عليه بنفسك (بلمس الأزرار طبعاً) القناة التى تريدها قبل أن يبثها لك .. ما أحلى الريموت الذى نشره اليابانيون فى بلادنا .

٦ ـ الفيديو .. حيث شاهدت بعض برامج جمعية القلب الأمريكية .

٧ ـ المكـواة الكهربـائية سبحان اللــه كنت أظن الماركات التى نعـرفها أرقى الأنواع فكيف نصف هذه التى لا يـزيد وزنها عن الخمسين جراماً التى تسوى الصوف بمجرد لمسة .

٨ ـ ماكينة صناعة القهـوة .. وأمرها سهل .. فهى تقريباً نفس الماكينة التى نعرفها جميعاً .

٩ ـ المكنسة الكهربائية وهـذه فى حد ذاتها تحتاج خبرة طويلة لأنها متعددة الأغراض والاتجاهات والاستعمالات .

١٠ ـ التكييف المركزى وأمره سهل .

١١ ـ غســالة الأطبـاق وأمرهـا سهل أيضاً لأن كل إنـاء يوضع فى محلـه ثم تدور.

١٢ ـ الراديو بالساعـة والمنبه وسوف أستعمل الراديو فقط . فإذا أضفت إلى كل هذه الأجهـزة خبرة لا بد لك بها مع كل مفاتيح الإضــاءة. ومفاتيح التحكم فى مفـاتيح الإضاءة.. ما هـذا؟ وهذا يضىء مـاذا؟ .. أدركت أن المسألة ليست بالبساطة التى تظنها من التأقلم على بيت جديد.

قبل أن تسافر العائلــة فى أول مرة أوصتنى ربة البيت خيراً بقطتها الأثيرة " باتشى " ولماذا لا تأخــذيها معك يــاسيــدتـى ؟. الجواب : حتى لا تتعب أعصابها بأماكن لم تتعود عليها ، أو بالركوب فى سيارة قد تهتز فتقلق باتشى النائمة دائماً.. من هذا الدولاب تستطيع أن تـأتى بالطعام إذا نقص طعامها.. وفى هذا الاناء تضع لها الماء.

والمسئولية عن حيوان أعجم أمــانة ثقيلة وكل فترة لا بد أن أذهب لأطمئن إلى أن باتشى لا تزال بخير ولكنى أساءل نفسى ماذا تفعل هذه القطة النائمة؟ لست أدرى. هل تأكل الفئران؟ أعتقد أن أى فأر مهما كان ضئيلاً قادر على أن يأكل هذه القطة وأن ينتهى من مضغ لحمها كله فى خلال أسبوع واحد. وحتى

هذا الفأر المصنوع من الموكيت و البلاستيك والملقى أمام باتشى على الأرض كفيل بها ، هكذا انتابنى الإحساس تجاه هذه القطة، وقديما كنا نعرف خيال المآته على أنه يخيف الطيور .. الآن يبدو أن هناك خيال مآته من نوع آخر كهذا الفأر الخيالى الذى يعطى الثقة للقطة بأنه لازالت هناك فئران فى الحياة الدنيا. بعد أيام من إقامتى اكتشفت شيئاً خطيراً حمدت الله عليه .. كانوا يسألوننا فى مراسلتهم أن نحدد إذا كنا مدخنين أم لا. لأن العائلات التى سنقضى عندها وقتاً ترغب فى تحديد هذه النقطة منعاً لإزعاج أى من الطرفين . جارتنا (ف) التى يقيم عند عائلتها زميلى البولندى مدخنة .. لكن المأساة التى رحمنى منها الله أن عندها ٣ كلاب !! ياللهول أما كان أولى بهم أن يسألوننا هل أنتم تطيقون الكلاب أم لا ؟فكرت فى نفسى (لو قدر لى بعد هذا أن أكرر مثل هذه التجربة) أن أكتب فى ورقى أننى غير مدخن وغير مطيق للتدخين ولا للكلاب وحمدت الله على نعمة الستر. فى صباح اليوم التالى وفى صدفة غريبة كانت ربة البيت تسألنى بينما نحن فى السيارة.. هل يربون الكلاب عندكم فى البيوت .. نعم ياسيدتى بعض الناس ولكنى لا أحب.. وتستطرد ربة البيت إنما أردت أن أسأل لأنه حدث ذات مرة أن جاءت طبيبة من الأردن كان المفروض أن تقيم عند جيراننا فلما وجدت الكلاب اعتذرت عن الإقامة فى مثل هذا البيت.

فيما بينى وبين نفسى أقول ولو كنت مكانها لفعلت هذا أيضا بالطبع.. وفيما بينى وبين مضيفتى لا بد من حديث آخر .. حديث عن الإنسان وكيف يخاف من الحيوان الأليف .. وأنا أعرف أن حديثى الجميل يعبر عن خوف صغير جميل أيضا.

الفصل الخامس

كليفيلاند كلينك: المكانة والمكان

أحب أن أحدثك الآن ولبعض الوقت عن العمل فى مستشفى كليفيلاند كلينك الذى قضيت فيه شهرين زائراً لأقسام القلب والأوعية الدموية. والذى يعد من أحسن المستشفيات فى الولايات المتحدة . إذن فمن المنطقى أن أحدثك عن أحسن المستشفيات فى الولايات المتحدة وأنت تدرك للوهلة الأولى أن هذا حديث صعب، لأنه يصعب عليك أن تميز بين القمم، ومع هذا لابد من التمييز، دعنى أذكرك بالمائة الأوائل فى الثانوية العامة - هل هناك فرق كبير بين الطالب الأول والطالب المائة؟ ربما ثمانية درجات أو ٢٪ فى المتوسط ولكن لابد أن يكون هناك أول المائة، ولهذا فإنك أحياناً ما تجد الأول فالثانى فالسابع لأن هناك خمسة يحتلون المركز الثانى.. كل منهم الثانى مكرر.. ولهذا يحتلون مراكز الثالث والرابع والخامس والسادس إضافة إلى المركز الثانى نفسه .

إذن هذا الترتيب هو بمثابة البحث عن أحسن الحلوين .. وإذا كنا فى حياتنا كثيراً ما نقنع بأحد البدائل لا لشىء إلا لأنه أحسن الوحشين.. فإن أحسن الحلوين يصبح بالنسبة لنا مشكلة كبرى. هناك بالطبع معايير كثيرة

لتقييم المستشفيات، ولن تنتهى، هذه المعايير وبالطبع هناك جداول ومقاييس ومعايير موحدة و Scores لهذا فى كتب إدارة المستشفيات وتقييمها، ولكنى مع هذا سأحاول أن الخص لـك تقريراً عن أحسن مستشفيات أمـريكا لصحيفة أنباء الولايات المتحدة (U.S. News & World Report) العالمى وهى الجريدة التى لا تكاد توازيها عندى إلا الهيرالد تربيون.

كانت فكـرة الصحيفة فى إعداد هذا التقريـر أنها سألت ٤٠٠ طبيباً فى ١٢ تخصصاً وكانت إجابات الأطباء منصبة على ٥٧ مستشفى. وقد اختارت أكثر هذه المستشفيات ترددأ فى اختيارات الأطباء ورتبتها على النحو (الرقم السابق هـو الترتيب للمستشفى يدل على عـدد.التخصصـات التى حظيت بتقـديـر الاخصائيين).

- ☐☐ مستشفى مايو كلينك فى منيسوتا ١١ تخصصاً .
- ☐☐ مستشفى جون هوبكنز فى بالتيمور ١٠ تخصصات .
- ☐☐ مستشفى جامعة دوك ـ ولاية كارورلينا الشمالية ٩ تخصصات .
- ☐☐ مستشفى مساشوستس ـ بوسطن ٨ تخصصات .
- ☐☐ المركز الطبى لجامعة كاليفورنيا لوس أنجلس ٨ تخصصات .
- ☐☐ المركز الطبى لجامعة واشنطن فى و لاية سياتل ٧ تخصصات .
- ☐☐ مستشفى بارنيس ـ سان لويس ٤ تخصصات .
- ☐☐ مستشفى كليفيلاند كلينك ٤ تخصصات .
- ☐☐ المركز الطبى المشيخى كولومبيا ـ نيويورك ٤ تخصصات .
- ☐☐ مستشفى جامعة ستانفورد ، كالفورنيا ٤ تخصصات .
- ☐☐ المركز الطبى لجامعة كاليفورنيا سان فرانسيسكو ٤ تخصصات .

طبعا من الملاحظ أنهم سألوا ١٢ تخصصاً فقط، ولو سألوا تخصصات أكثر فربما تغيرت النتيجة ـ ولكن هذه الفكرة سريعة وصادقة إلى حد بعيد على كل حال.

هل تحبنى أن أزيدك فى هذا المجال بعض الشىء فأنقل لك قائمة أحسن الحلوين فى تخصص القلب إذن فهذا هو الترتيب : ـ

- مايو كلينك ٧١٪ من الأصوات .
- مستشفى مساشوستس ٧١٪ من الأصوات .
- كليفيلاند كلينك ٥١٪ من الأصوات .
- مستشفى جامعة دوك ٤٩٪ من الأصوات .
- مستشفى برجهام وومن ٤٦٪ من الأصوات .
- مستشفى جين هوبكنز ٣٧٪ من الأصوات .
- مستشفى جامعة ستانفورد ٣٧٪ من الأصوات .
- مستشفى جامعة إيمورى ٣٧٪ من الأصوات .
- مستشفى جامعة ألاباما ٣١٪ من الأصوات .
- المركز الطبى المشيخى ـ كولومبيا بنيويورك ٢٦٪ من الأصوات .
- المركز الطبى لجامعة بنسلفانيا ٢٣٪ من الأصوات .

ها أنت ياسيدى قد أخذت فكرة عن المستشفيات ـ ولعلك ونحن بلد يفرق بين القطاع العام والقطاع الخاص وبين الجامعة ووزارة الصحة .. إلخ تدرك معى من الأ سماء التى كتبتها كاملة أن كلا من مايو كلينك وكليفيلاند مؤسسات خاصة وليست بمستشفيات جامعية ولا حكومية وأن القائمة تضم مستشفيات جامعة ومستشفيات عامة كذلك .

وقد ساعد على ذيوع كليفيلاند كلينك والشهرة العالمية التى حظى بها أنه شارك فى صياغة كثير من الإنجازات الرائعة التى شهدتها السنوات الأخيرة

فقد شارك فى تطوير جراحات القلب والتصوير الصبغى لشرايين القلب، كما شارك فى تطوير جراحات سرطان الثدى والدرقية والقولون والأمعاء وكذلك فى زراعة الكلى والكلى الصناعية. وبالإضافة إلى هذا ساهم هذا المستشفى فى تحديث وتطوير الأعضاء الصناعية وبخاصة الوسائل المعينة للقلب(I.C.U) وفى زراعة القلب .

أما البحوث التى أجريت على الضغط وعلاقته بتصلب الشرايين فهى نموذج رائع للبحوث العلمية الدموية والمتكاملة والتى درست كثيراً جداً من العوامل والجوانب المتعلقة بالموضوع.. ويكفيك أن تطالع مثلاً قائمة عناوين البحوث التى نشرها اثنان من أساتذتنا المصريين الذين عملا فى هذا المستشفى منذ السبعينات وهما الدكتور روبير طرزى والدكتورة فتنة فؤاد لترى كيف عُنى قسم البحوث فى هذا الصرح الطبى العظيم عناية خاصة بهذا المرض. وفى الطريق إلى المراجع الطبية وإلى استخداماتنا فى كثير من المستشفيات فى جميع أنحاء العالم نتائج التطبيق لأجهزة دراسات التصوير الصبغى للشرايين بالطرح الرقمى (Digital subtraction Angiography وأجهزة الرنين المغناطيسى / magnetic Resonance (MR) التى أصبح لأقسام الأشعة هنا خبرة واسعة بها منذ أتيح لأطباء هذا القسم العمل على الطرازات الأولى من هذه الأجهزة وتسخيرها لخدمة أغراض العلاج والتشخيص.

لا غرابة إذن فى أن يستقبل هذا المستشفى كل عام ٦٣٠ ألف حالة فى العيادات الخارجية وأن يدخل هذا المستشفى للعلاج الداخلى ٣١ ألفاً كل عام. ولا غرابة فى أن تتسع مظلة جنسيات هؤلاء المرضى لتغطى ٧٨ دولة خارج الولايات المتحدة . ومن الطبيعى إذن أن ينتبه الأمريكيون إلى إنشاء ما يسمى بالمركز الدولى فى هذا المستشفى لينظم ويساعد فى تنمية علاقات المرضى الأجانب بهذا المستشفى، ويضم هذا المركز مجموعة من المترجمين، يساعدهم

وقتهم على أن يـرافقـوا المرضى من قسـم إلى قسم، ويتـابعـوا لهم مـواعيـد الفحوص والعمليات.. إلخ، ولهذا كانت كليفيـلاند كلينك أول مؤسسـة حظيت بأن أطلق عليها الكونجـرس و وزارة الصحة والخدمات الإنسانيـة الأمريكية مصطلح " مركز قومى للاستشارات » .. وهى جملـة تعنى ما تعنى ولكنهـا تـرتفع بالمركـز من هاتيك المراكـز إلى المكانـة التى تحتلها فى القضـاء محاكم النقض والإبـرام .. أو المحـاكم العليا كما يسمـونها فى بعض البـلاد. أحب أن أنتهز الفرصـة هنا لأذكر أن الـدكتور محمد كامل حسين عليه رحمة الله حين كـان يتحدث عن القصر العينى (الجديـد أيامهـا) منذ ستين عـاماً يقـول إن الهدف من تطوير القصر وتطوير التعليم والعلاج فيه أن يكون بمثابة محكمة عليا للحالات الصعبة. المعنى واضح وإذا كـان التشبيه بالقضاء لا يروق لك، فخذ مثلاً على ما أريد أن أقول بما يسمى فى فقة طائفة الشيعة بالمرجعية.

تسـألنى عن عـدد الأطبـاء العـاملين فى هـذا المستشفـى فأجيبك بأنهم لايبلغون الخمسمائة فهم حوالى ٤٥٠ ولك أن تعجب من قلة عددهم بالمقارنة بعدد أطبائنا فى الجامعات أو وزارة الصحـة.. ولكنى أعتقد أنك تقدر أن هؤلاء متفـرغـون تمامـاً للكلينك، غير مسمـوح لهم بأى عمل خـارج الكلينك حتى الأطباء العاملون فى أقسام البحوث والتعليم. وأريد أن أكون صادقاً معك حتى النهاية فأستثنى لك النواب الخمسمائة الذين يساعدون هؤلاء الأطباء فهؤلاء النواب هم الوحيدون الذين يستطيعون أن يختطفوا من أوقاتهم المسائية يوماً أو اثنين فى الأسبـوع يكـونـون خـالين فيـه من النـوبتجيـات ليعملـوا فى النوبتجيات المسـائية الساهرة فى المستشفيـات الخاصة الصغيرة .. يسمون هذه النوبتجيات هنا بالعمل فى ضوء القمر Moon Light تعبير جميل بلاشك.. ولكن الأجمل منه أنهم يتقاضـون عن الساعة الواحـدة حوالى ٣٥-٤٠ دولاراً

ومع ذلك لا يعجبهم الحال .. مع أن هذه الساعة تفوق مرتب زميلهم المصرى فى شهر كامل!!....

ونعود إلى عدد الأطباء القليل فنجد أنه مسنود بعدد ضخم من الموظفين ـ يكفى لكى تأخذ فكرة عن الموظفين قبل أن أعطيك عددهم الكلى، أن أذكر لك أن لكل طبيب من أطباء القلب ممرضة خاصة وسكرتيرة خاصة ـــ تصور ٤٥ ممرضة و٤٥ سكرتيرة لأطباء القلب. دعك من ممرضات الرعاية والقسطرة والموجات فوق الصوتية والأجنحة العادية، وسكرتيرات الاستقبال والمواعيد وتوزيع الحالات على الأطباء والعاملات على الكمبيوتر.. إلخ كل هؤلاء .. ألا يستلزم هنا أن يكون عدد العاملين فى المستشفى تسعة آلاف موظفاً وموظفة (بمتوسط ٢٠ لكل طبيب) . و تتيح المستشفى لنفسها الفرصة الكبرى من كفاءات النواب حين تتيح الفرصة لتدريب ٥٠٣ نائباً و١٣٤ زميل أبحاث و٢٣٩ من طلاب العلوم الصحية المتصلة بالطب و٤٢٦ طالباً (يقضون شهراً أو شهرين) ، ست وستون منهم طلاب الصف الثالث وثلاثمائةو ستون من طلاب الصف الرابع من مدارس الطب .

هل تريد أن تُكَون فكرة عن أسعار العلاج فى هذا المستشفى ـ نعم لك أن تكَون فكرة عن أن سرير الرعاية المركزة يتكلف فى الليلة ألفاً وخمسمائة دولاراً تقريباً، أما السرير فى الحجرة العادية فيتكلف من ٥٧٥ إلى ٧٧٥ دولاراً فى الليلة الواحدة. أما القسطرة فتلكف المريض ثلاثة آلاف ونصف . وأما فحص الموجات فوق الصوتية فيكلف المريض ألفاً من الدولارات.

كيف يختار هؤلاء المتميزون متميزين جدد للعمل معهم؟ فى أثناء إقامتى كانت كليفيلاند كلينك بصدد إختيار رئيس جديد لقسم القلب، فقد بلغ الأستاذ شيلدون الستين وقد تولى رئاسة القسم منذ الستينات ، وكان هناك

اثنـان يمثلان أبـرز المرشحين ولم يبلغـا الأربعين بعـد : أستاذ مسـاعـد من ميتشجن وأستاذ من جامعة دك .. أما مـرشـح مايو كلينك فلم يلق القبول من اللجنة .. واللجنة مكونة من سبعة من كبار أطباء المستشفى من أقسام أخرى غير القلب.. واختيـار رئيس قسم جديـد ليس بالمهمـة السهلة على الاطـلاق، ففضـلاً عن الحرص على اختيـار الأفضل والأنسب تأتى مـراعـاة رغبـات وفلسفات المرشحين فقد يطلب الرجل مثلاً خمسين مليوناً للأبحاث كل عام .. قد يرى أنه لا ينبغى لراتبه السنوى أن يقل عن رقم معين!! قد يرى زيادة عدد معامل القسطرة إلى النصف.. قد يرى مضاعفة أسرة الرعاية المركزة أو تعديلاً جـذرياً فى خطـط العلاج فيهـا.. إلخ . ومثل هـذه السيـاسات تـرتبط تمامـاً بالسياسات العامة الكبرى للمستشفى وموازنته .

عملية اختيار رئاسة القسم أصعب بكثير من أن تُشبه بالمخاض فحسب . يكفى أن نـذكر أن الطبيب العـالمى الدكتـور سون بكل عظمتـه لم يستمر فى مـوقعه وعمل تحت رئاسـة شيلدون. و قـد تـوفى سون منـذ سنوات قليلـة وسميت معامل القسطرة باسمه، ومازال كل من فى القسم يذكرونه ويذكرون فضله .. وقد التقيت برجل عظيم هو الأستاذ إيرل شيرى Earl Shirey كان أول من عمل مع سون فى القسطرة ولكنه يحمل لقب Resident Emeritus وله مكتب وأبحاث.

ربما يكون السبب فى شهرة كليفيلانـد فى مصر اهتمامها بجراحات القلب المفتوح وعلى الـرغم من أننا حققنا كثيراً من النجاح فى كليـات الطب وفى معهد القلب القـومى فى إمبابـة إلا أننا لانزال نفضـل أن نعالج أنفسنـا خارج مصر غالباً فى كليفيلاند أو هيوستون تكساس فى الـولايات المتحدة ـ وأحيانا أخرى فى لنـدن ، ومـن حق القـارىء على أن أتجرد الآن من مهنتـى كطبيب قلب

لاعترف لـه أنـه سيأتى يـوم قريب وقـريب جـداً يصبح فيـه الـذين يجرون جراحاتهم فى مصر فخورين بأنهم أجروها فى مصر ولم يضطروا إلى اللجوء إلى الخارج، ذلك أن مراكزنـا اليوم تتقدم بسرعة رهيبة فى هـدوء، وتتغلب بعزيمة قوية ونيـة صادقة على ما يصادفهـا من متاعب، والأهم من ذلك أن خبرة هذه المراكـز فى مواجهـه المصـاعب تنمو فى بنـاء متكـامل .. .. إلى حين تصل المهن الطبيبـة المساعـدة والموازنة فى مصر إلى النقطـة المثاليـة للإتـزان مع الخبرات الطبية والإمكانـات المعملية وأدعو الله أن يتاح لنـا أى لى ولجيلى أن نشـهد هذا اليوم عن قريب .

تجرى كيلفيلانـد فى العام ثلاثين ألف عمليـة جراحية منهـا ٣٢٠٠ عملية جراحة قلب، هذا الرقم يعطيك فكـرة عن كليفيلاند وكيف أصبحت أكبر مراكز لجراحات القلب فى العـالم. وقد تولى الجراح الأشـهر لوب رئيس قسـم جراحة القلب فى الكلينيك رئاسة مجلس المديرين التنفيذيين فى المستشفى مؤخرا ولهذا خلفه فى رئاسة قسم جراحة القلب الدكتور كروسكوف ، ولايزال لوب يمارس جراحاته ..

ولمصر ثلاثة أقطاب بـارزين فى الكيفيلاند كلينيك سأحدثك عنهم بترتيب قدومهم إلى الكلينيك .. (وبـالمناسبة هـو نفسه ترتيب أقـدمياتهم فى مصر ..) الدكتور فوزى اسطفانوس خريج عين شمس ١٩٦١ ـ عمل طبيباً بمستشفى صيدنـاوى حتى ١٩٦٧ حيث سافر انجلترا وحصـل على زمالة التخـدير من كلية الجراحين الملكيـة عام ١٩٧٠ فعمل شهراً فى هولنـدا ثم عمل منذ ١٩٧٠ وحتى الآن فى كليفيلاند كلينيك ورأس قسم تخدير جراحة القلب والصدر منذ ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٧ ومنـذ ينايـر ١٩٨٧ أصبح رئيساً لاقسـام التخديـر فى مستشفى كليفيلاند كلينك ولكنه لايزال يحتفظ بإهتمامه الشديد فى جراحات

القلب والصدر حيث يمثل الرعيل الأول من أطباء التخدير الذين تخصصوا فى مثل هذا المجال وحولوه إلى شبه تخصص مستقل . وفى ١٩٨٨ تولى فوزى اسطفانوس تحرير كتاب التخدير ومريض القلب بالاشتراك مع ٥١ مؤلفاً .. ومن أطباء التخدير المصريين الأمريكيين الذين شاركوا فوزى اسطفانوس تحرير هذه الكتب: عادل العتر فى فلوريدا ورامز سالم فى شيكاغو ونبيل فهمى فى هارفارد وعزت أبو العيش فى تكساس.

القطب الثانى : الدكتورة فتنة فؤاد ، كانت أولى دفعتها فى قصر العينى ١٩٦٥ وحصلت على الدكتوراه في الأمراض الباطنية ١٩٧٤ من جامعة القاهرة ومنذ ١٩٧٦ وهى تعمل فى الكليفيلاند كلينك وتقود الدكتورة فتنة بحوثاً متقدمة فى مجال ضغط الدم ووظائف القلب الانبساطية والانقباضية .

القطب الثالث : الدكتور محمد عبد الحميد تخرج من كلية الهندسة ١٩٦٧ وكان من أوائل الذين وقع عليهم الاختيار فى مصر (الطموحة إلى التقدم دائماً) للعمل فى المجال الذى اصطلح على تسميته فيما بعد بالهندسة الطبية، وعمل الدكتور محمد عبد الحميد فى معهد السمع والكلام بامبابة وابتعث إلى إنجلترا بعد ذلك حيث حصل على الدكتوراه Ph.D وفى ذلك العام قدم كليفيلاند ينتوى العمل لمدة عام ولكنه بقى حتى الآن لمدة أحد عشر عاماً .. ويرأس الدكتور محمد عبد الحميد معمل وظائف الاتزان فى قسم الأنف والأذن والحنجرة وفى ذات الوقت يقوم بدراسة الطب فى جامعة كيس ليجمع بذلك بين Ph.D وM.D.

أما فى جامعة كيس ويسترن فيبرز عدد من النجوم المصريين فى كثير من الكليات ولأنه لم يتح لى أن أتعرف عليهم جميعاً المعرفة التى تمكننى من الحديث عنهم فإنى سأعتذر عن ذلك توخياً للامانة إلى أن تتاح لى هذه الفرصة ، وساكتفى بأن أحدثك عن الدكتور عادل عبد الفتاح محمود رئيس قسم

الباطنــة فى كلية الطــب وهو خريــج طب القاهــرة ١٩٦٣ وكان أحــد الأقطاب البارزين فى الحركــة الطلابيــة والشبابية ، وهــو الآن أحد الأقطــاب البارزين أيضاً فى مجال الأمراض المعدية .. ويقود فرقاً للبحث فى كثير من المواقع ، وهو الذى تــولى كتابة الفصل الخاص بالبلهــارسيا فى المرجع الطبى الكبير سيسل لوب.

ولابــد أن أذكر لك كــذلك بكل الخير قطبين بــارزين من أطبــاء كليفيلانــد الأحرار الذين يعملون خارج الجامعة أولهما الدكتور سيد حسنى خريج طب الاسكنــدرية ١٩٥٦، وقــد قــدم كليفيلانــد فى ١٩٧٠ حيث يمارس تخصص النساء والتوليد منذ ذلك الحين متمتعًا بسمعة طيبة وبنجاح مطرد ، وبيته هو بيت المصريين فى كليفيلاند وزوجته السيدة نادية هى أم المصريين فى كليفيلاند وثانيهما هــو الدكتور محمــد الملوانى وهــو خريج طب القاهــرة ١٩٦٧ وكان ثانى الدفعة وعمل نــائباً لأمراض النساء والتوليد فمعيــداً وهو اليوم من أبرز المتخصصين فى جراحات الليزر والمناظير .

هل تسمح لى ياسيدى القارىء أن أعود بك الآن إلى أول صفحات كتبتها فى هذا الكتــاب مصوراً على طريقة اليــوميات ما صادفنى فى كليفيــلاند كلينك !! هذه ياسيدى يومياتى الحقيقية :ـ

يوم الأثنين :قبل أن تبلغ الســاعة الثــامنة كنت واقفــاً أمام السكــرتيرة الإيطــاليــة فى المركــز الدولى حيث كــان على أن أمــلأ استمارة تفيــد قــدومى، واستمارة أخرى من أجل التأمين الصحى واستمارة ثــالثة من أجل استخراج البــادج الخاص بى. حتى تصل زميلتهــا ســألتنى السكــرتيرة أن أبقى بعض الوقت فى قاعة للمؤتمرات.

كى استخرج البادج كان على أن أسلك طريقاً محدداً ولا أقول طويلاً . تأخذ مصعد مبنى الفندق الذى أنت فى الدور الرابع منه حتى الدور الأول من الفندق وتمضى إلى الخلف حتى الباب الخلفى للفندق تنتظر هناك أتوبيس المستشفى الأبيض الخاص الذى يحمل حرف A سوف يقودك هذا الأتوبيس إلى المبنى المسمى شوستر ضمن المبانى الأخرى التى يمر بها هذا الأتوبيس .. وهذا الأتوبيس ليس وحده الذى يؤدى هذه الخدمة المجانية فى التنقل بالأطباء والمرضى والزائرين والعاملين بين أرجاء مستشفيات كليفيلاند والمرافق الأخرى المرتبطة بأقسام المستشفيات سواء الفنادق أو بيت الضيافة .. إلخ.

إذا وصلت إلى مبنى شوستر فعليك أن تأخذ المصعد إلى الدور A لأن هذا الدور الذى يوازى الشارع هو الدورC وتحته طابقان A&B وفوقه طابقان D&E وعلى هذا النمط كل أبنية المستشفى ف A لا يناظر A دائماً والأول لايناظر الأول دائماً.. ربما ناظر الدور الثالث فى هذا المبنى وربما ناظر الدور الثانى فى مبنى آخر .. وربما ناظر البدروم الأول أو البدروم الثانى وهكذا ..

ولكنك مع ذلك كله لا تضطرب فى البحث عن هذه المناظرات بل ولا تفكر فيها على الإطلاق .. بل إننى مع تقدم الوقت بى فى المستشفى اكتشفت ولكى أكون صادقاً أو اكتشفت مجموعة من أساتذتنا المصريين الذين زارونا أننى أعرف بعض طرق المستشفى وتخاريمها Shortcut أحسن من بعض الذين يعملون هنا أكثر من ١٥ عاما.. لأنك تجد التعليمات واضحة ومحددة واللافتات الدالة على ما أنت فيه ، وعلى ما تريد ، واضحة ومعبرة ومنتشرة مع كل خطوة تخطوها.

وحين تذهب لاستخراج البادج فإنك تملأ استمارة أخرى وتوقع عليها وتجلس أمام كاميرا ، والكاميرا متصلة بالكمبيوتر ، والسكرتيرة تأخذ اسمك

وتكتبه على لوحة مفاتيح الحروف وفى ذلك الوقت توجه الكاميرا إليك لتأخذ صورتك فى نفس الوقت ، ويخرج لك البادج سريعاً من هذا الجهاز الكاتب المصور المغلف والمحتفظ بالمعلومات فى ذات الوقت . ماذا يسمونه ؟ لست أدرى!! وفى التعليمات المكتوبة فى الورقة أن هذه العملية تأخذ من عشرين إلى خمس وأربعين دقيقة ولكنها لم تأخذ معى أكثر من ثلاث دقائق .. أجد قلمى يريد أن يقول قل خمسة حتى لا تتهم بالمبالغة .

وتطلب السكرتيرة عشرة دولارات كتأمين لهذا البادج تضيع عليك إذا مارست هواية البشر فى الاحتفاظ بالبادج كذكرى. أما إذا أردت الدولارات العشرة فعليك أن تسلم البادج فى اليوم الأخير .

وها أنا أعود حيث أتيت إلى المركز الدولى فى الطابق الرابع من الفندق. فإذا مسئولة التأمين الصحى فى انتظارى لأملأ استمارة أخرى،ثم تعطينى ورقة بموعدى عند طبيب الأسنان فى الساعة الحادية عشرة والنصف عند الديس S - 52 وكل اللقاءات على هذا النحو.. رقم للديسك يتكون من حرف أبجدى ورقم. والرقم يعنى رقم الدور من خانة العشرات والحرف الأبجدى الذى يدلك على المبنى . إذن فعندى وقت من الساعة التاسعة والنصف حتى الحادية عشرة والنصف أقضيه عند الدكتور جبران الذى سوف يكون من حظى أن أعمل معه هذا الأسبوع. فلأذهب إلى F 25. وهذا هو رقم الديسك الخاص بقسم القلب الذى سوف أعمل فيه . إذن فلا بد أن أذهب إلى مبنىF وهو كما تقول الخريطة هو المبنى الملاصق لمبنى الفندق .. إذن فلا داعى للأتوبيس هكذا أفكر بصوت عال أمام السكرتيرة التى توافقنى وتقترح علىّ الذهاب عن طريق ما يسمى طريق السماء..وطريق السماء هذا كوبرى مشاة طويل يبلغ طوله ٧٠٠ قدم عريض لا يقل عن ٥ أمتار، زجاجى الجنبات مكيف الهواء وبساطه من أفخم أنواع السجاد وجدرانه من أروع الديكورات

والزجاجيات..ربما يمـر بخاطرك ذلك الممر الضيق بين مبنيين للبنك الأهلى فى شارع شريف بالقاهرة ولكن هذا لايمثل واحد على المليون من جمال ولا جلال ولا كمال هذا الممر طريق السماء الذى يربط مبـانى مؤسسة كليفيلاند كلينك الطبية معاً.

وفى طريق السماء هـذا مصاعد لكل مبنى — فإذا إنتقلت من مبنى الفندق إلى المبنى F مثلاً .. فإنك لابد أن تنزل إلى الطـابق الأول من الفندق وهو اللوبى وفى نهايته تصعـد طابقاً لتكـون فى مستوى طريق السماء الـذى تمضى فيه حتى تصل إلى مصاعد المبنىF وهناك تطلب إلى المصعد أن يقف بك [لا تقل هنا يصعد أو يهبط لأن الأمر يختلف من مبنى إلى مبنى حسب مستواها مع طريق السماء] عند الطابق الثانى مثلاً ، وفى الطـابق الثانى تبحث عن الديسك الذى أنت موجه إليه.

أما الدكتور جبران فقد بدأ المرور فى الرعـاية المركزة هكذا جاءنى الرد بعد مـا استدعـوه بالبليب ولكنى أنـا الآخر سأكـون مشغولاً بـدءاً من السـاعـة الحادية عشرة والنصف .. ويجىء الرد مرة أخرى بعـد الاتصال به بالبليب .. إذن فلأذهب إليه بعدما أنتهى من كل ما يشغلنى. وأمامى قرابة المائة دقيقة يتيحها لى الله لأكتب لكم هذا الذى بدأت كتابته عن كليفيلاند .

هل يكـون حديثـى معك عن بعض التفصيلات فى مستشفـى كليفيلانـد كلينيك حـديثـاً ثقيل الظل بعض الشـىء حين أحـدثك عن المستشفى العظيم الذى أتيح لى أن أمضـى فيه هذا الـوقت المثمر .. نحن نقـول دائماً بشـىء من الفخر التعويضى إن أمريكا بلد بلا تاريخ أعرق ما فيه عمره مائتا عام .. نعم ياسيدى ولكن معظم ما فيه من رموز الحضـارة الحديثة جداً أيضاً قد قارب عمره على المائة عام !! ونحن لانزال بين يوم وآخـر حين نريد أن نرفع من قدر

شىء نلجأ إلى حقيقة واحدة أو إلى حيلة واحدة ـ لست أدرى ـ فنقول أنه أول مركز وأول معهد وأول برنـامج وأول مؤتمر .. إلخ. إذن فنحن فى بلاد العراقة معظم مؤسساتنا لم يبلغ العام، وهم فى بلاد الحداثة معظم مؤسساتهم قارب المائة عام .

نحن فى كليفيلاند وفى كليفيلاند أكثر من جامعة.. هل تعرف هذه الجامعة التى تسمى كيس ويسترن ريسرف يونفرستى؟ والتى ننظر إلى مستشفياتها ـ نحن الذين فى كليفيلاند العظيمة ـ من علٍ!! هذه الجامعة ياسيدى بدأت عام ٢٤ ـ طبعاً تظنّ أنها بدأت بالكاد قبل جامعة القاهرة بعام واحد ـ نعم لك الحق ياسيدى إذا ظننت ذلك، ولكن من حقك علينا أن نقول لك إنها بدأت عام ١٨٢٤ وليس ١٩٢٤ .. وكليفيلاند هذا الصرح الطبى أنشىء عام ١٩٢١ حين وجد ثلاثة من أساتذة هذه الجامعة أنهم سيتقاعدون بينما هم لايزالون يحبون أن يمارسوا الطب .. فبدأوا بناء هذا المستشفى وانتهوا منه فى عام. وقد كان أجر العامل يوم بنوا هذا المستشفى دولاراً لكل ساعة ، وفى تلك الأيام كان الغداء يتكلف ٢٠ سنتاً أى خمس دولار، وكان طابع البريد بسنتين وقد قام أول مبنى فى هذا المستشفى على مساحة ٧٦ قدماً × ١٢٠ قدماً واستخدم فى بنيانه حوالى ٤٨٠ ألف طوبة وقد عهد بتصميمه إلى المهندس العظيم الليربى Ellerbee وهو نفسه الذى تولى بناء مستشفى مايو كلينك العظيم من قبل . أما اليوم فتقوم الكلينك على مساحة ١٠٥ هكتار أى أكثر من ١٠٠ فدان وتضم عدداً من المبانى المتباينة تماماً فى ذوقها وبنائها ومعمارها يبلغ عددها أكثر من ٣٠ مبنى ولكنها مرتبطة مع بعضها كما حدثتك من قبل بطريق السماء وسأحاول أن أصور لك الأمر بشىء من التفصيل مع أن كل القريبين منى يجمعون على أنى أسوأ من يشرح !! .

أنت الآن فى شارع يوكليد ، و الـذى يُفتَرض أن عنوان الكينك عليه رقم ٩٥٠٠ شارع يوكليد ، ويوكليد هـذا عالم يونانى . وأنت الآن قادم من وسط البلد .. ستجد إلى اليمين مبنـا قديماً له مدخـل صغير على الشارع تكاد العين تخطئه اليوم .. نعم لأنه اليوم مدخل فرعى لقسم صغير هو مركز الأورام.. إذا دخلت من هذا البـاب وعَبَرت الطرقة الطـويلة التى تمر عبر قسم الأورام فإنك تجد نفسك فى مـــدخل استقبــال فسيح (يكفى عليـــه وصف فسيح لأننـــا سنصادف بعد هذا مـداخل فسيحة جداً مدخل M ومداخل فسيحة جداً جداً كمـدخل مبنى F&G ومـداخل أخـرى ليس إلى وصف فســاحتهـا من سبيل كمدخل مبنى A) هذا المدخـل الذى ستجده بعـد قليل يمثل ياسيـدى المدخل الحقيقى لأحد الأجنحة الثلاثة الضخمة التى تكون مع بعضها شكل حرف U الذى يتمثل معه المستشفـى القديم تماماً . أما الجناح الأيمـن فهو الذى يضم المبانى التـى تحمل حروف M,S&T وأما الجنـاح الذى يمثـل حرف U فيضم المبانى التى تحمل حروف A,G&F وأما الجناح الأيسر فهو مبنى البحوث . أما مبنى T فهو مخصص للعيادات الخارجيـة وأما حرف S فهو الآخر للعيادات الخارجيـة . والعيادات الخارجيـة مصطلح يعنى تلك الأجـزاء من المستشفى التى لا تقتضى مـن المريض المبيت بـــالمستشفى ، إنما هـو يـأتى المستشفى يعــالج أو يشخص من دون أن يبيت فيـه ، وفى هذا المبنى فى الـدور الخامس مثـلاً عيادات الأسنـان ، وفى الـدور السادس القســم الذى يتـولى تشخيص أمراض الجهاز الـوعائى بواسطة الدوبلـر وأما حرف M فهو مستشفـى فيه عنابـر داخلية، ويضـم أيضا مستشفى الطـوارىء وفيه أيضــاً عيادات الألم التابعة لقسم التخدير فيما بين حرف S وحرف M يوجد مبنى كامل للأغراض التعليمية اسمه مبنى التعليم Education فى هذا المبنى قاعات عديدة للمؤتمرات وفيه المكتبة .. وتجتمع هذه المبانى الأربعة M,S&T والمبنى التعليمى على مدخل

واحد جميل فيه الماكينات الخضراء التى تسمح لك بصرف أموالك التى فى البنوك ببطاقات الفيزا .. وفيه كافيتريا للوجبات السريعة .. وفيه خزينة للتأمينات والمستحقات وفيه ماكينات بيع الصحف وفيه أكشاك للإستعلامات وأكشاك للدعاية لمشروعات التوعية الصحية المتنوعة كالحملة ضد السموم ــ أو ضد السرطان أو ضد الإيدز أو من أجل التغذية السليمة.. إلخ . وفيه مكتب للبريد .. كل هذا ياسيدى تجده فى المدخل الذى تبخل عليه عظمة كليفيلاند بكلمة فسيح جداً .

أكون مقصراً فى حق المبانى الأربعة إذا لم أقل لك إن لها مداخل أخرى فالمبنى T كما قلت لك له مدخل على شارع يوكليد نفسه وللمبنى التعليمى مدخل خلفى على الشارع الشرقى التسعين وإلى الجانب الآخر من الشارع تجد أحد الجراجات الكبرى بالمستشفى ومبنى M وهو مبنى الطوارىء له مدخل هو الآخر على الشارع الشرقى التسعين .

هذه هي المبانى الأربعة التى تمثل الجناح الأيمن من الكتلة الكبرى من كليفيلاند كلينك ... تصور نفسك قادماً معى من وسط البلد ماراً بشارع يوكليد حيث الباب الصغير الذى يطل به مبنى حرف T على شارع يوكليد، فإنك تجد قبل هذا المبنى عدداً من المبانى يطل على شارع يوكليد ولكنها لاتنتمى إلى كليفيلاند كلينك ـ ولكن وراء هذه المبانى مباشرة يهمنى أمرها ـ وتقع الثلاثة فيما بين الشارع الشرقى التاسع والثمانين والشارع الشرقى التسعين إثنان منها جراجانْ .. أحدهما اسمه جراج الموظفين .. والثانى اسمه جراج التسعين أما المبنى الثالث فهو مستشفى ويحمل حرف P. ها أنت ياسيدى تدرك الآن أنه لابد لحرف P وللجراجات أن تتصل عبر الشارع التسعين بكتلة المستشفى الأصلية من دون أن يعبر المرضى أو الموظفون أو

الزوار الشـــارع .. نعم .. وهناك شبيه بطريق السماء فـوق الشارع التسعين الشرقى . أعود بك إلى حرف U ها أنت قدمت من شارع يوكليد سواء بالسيارة أو على قـدميك ودخلت فى حـرف U حيث النـافورة التى تتوسطـه والتى تمر حولها السيـارات ـ وأنت الآن عـرفت أنه فى الشمال يقـوم مبنى البحوث وإلى اليمين المبانى الثلاثة M,S&T فماذا فى الواجهـة ؟ فى الواجهة يـاسيدى ثـلاثة مبان أحـدث عمراً من الســابقة ـ تبـدو لك كأنها مبنى واحد ولعلهـا كذلك .. مدخلهـا فسيح جداً جـداً ـ ينضم إلى مدخلهـا جزء كبير من مســاقط النور ـ ومساقــط النور فى هذا المدخل مغطـاة بالـزجاج ولكن ليس من الطـابق الأول وإنما من الطـابق الثانى .. وإذن فـلارتفـاعها عظمــة شــاهقة تـريح النفس وتبهرها فى نفس الوقت والفكرة المعمارية فيها تقليد لفكرة العمارة الإسلامية فى مســاقط النـور الداخليـة ـــ والجلوس فى هـذا المدخل الكبير متعـة كبيرة ، صالـونات فخمة وزهور جميلـة وتليفزيونات ذات شــاشات كبيرة الحجم ، تكييف جميل ، فــاذا مــا تجاوزت المدخل الفسيـح جـداً إلى عمق المدخل حيث مساقط النور المغطاة بالزجاج الجميل على هيئة هرم أو نصف هرم أحسست بالراحة التامة من هذا المعمار المريح .

أما مبنىF فهو مخصص للعيـادات الخارجية ومكاتب الأطبـاء وأما مبنى M&G فهما مخصصـــان للجراحـات والرعـايـة المركزة والأقســام الداخليـة للمــرضى. وترتفـع هــذه المبانى أحـد عشر دوراً . تـريد أن تسألنى عن بقيـة مبانى الكلينك . دعنـــا ننظر من علٍ كما لو كنا فى طائرة مــن فوق الكلينك كله لأصـور لك الأمــر كله تصوٌيـراً بسيطاً . إذا كـانت مبانى المستشفى تطل على ميدان فسيح يطل على شـارع يوكليـد وإذا كانت المستشفى تأخذ شكل حرف U وإذا كانت مبانى H&G وكذلك P بمحـاذاتها تمثل قاعدة حرف U فعلام تطل هذه القاعدة من الجانب الخلفى ؟ إنها تطـل ياسيدى على شارع عظيم لا يقل

اتساعاً عن شارع يوكليد وهو مسمى باسم رجل عظيم آخر هو كارينجي . أنت الآن ستدرك بذكاءك ، وأنه لابد هناك امتداد لكيفيلاند بعد شارع كارنيجي نعم ياسيدى هناك مبنى ضخم جداً جداً هو مبنى حرف L وهو المخصص للمعامل .. وفيه جزء كبير شبه مستقل مخصص لأجهزة الرنين المغناطيسى وقد صمم معمار هذا المبنى بحيث لا يسمح للتأثيرات المغناطيسية أن تؤثر على الأجهزة العاملة فيه وقد كان هذا هو الاعتقاد فيما مضى ، أما بعد التطوير التكنولوجى فقد أمكن التغلب على هذه الصعوبة . طبعاً ياسيدى لابد من طريق السماء يعبر فوق شارع كارنيجى ليوصل المعامل بمبانى المرضى H&G وببقية كتلة المستشفى . حين أكون واقفاً فى حجرات المرضى فى الرعاية المركزة فى مبنى G فإننى أطل على شارع كارنيجى من هذه الحجرات . وشارع كارنيجى هذا من حيث المرور يطبق قاعدة مهمة جداً فهو من يوم الإثنين وحتى الجمعة من الرابعة وحتى السادسة والنصف يكون اتجاهاً واحداً فقط ناحية الشرق، وفيما عدا ذلك فهو اتجاهان.

لك ياسيدى أن تتجاوز كل هذه الفقرات التى أكتبها فى وصف المبانى والخرائط وتستغفر لى ولنفسك عن اللحظة التى فرضت فيها على نفسك أن تقرأ هذا الكتاب الممل - ولكننى لن أسامح نفسى إذا أهملت وصف المبانى والشوارع والمرور - وأهملت من الحضارة إنجازاتها الرائعة وتنظيمها الدقيق وتغلبها على كل المشكلات التى تصاحب النمو المتراكم والاتساع المدروس عبر السنوات .

أريد أن أقول ياسيدى إن هذه المبانى التى أحدثك عنها ليست مبعثرة أكثر من بعثرة مبانى طب عين شمس التى تظنها متبعثرة بين عين شمس التخصصى على يمين الخليفة المأمون .. وعين شمس القديم على شمال

رمسيس والدمرداش من خلفه والنساء الجديد مستشفى الأطفال ومركز الطب النفسى فى عرب المحمدى ومبانى الكلية والمدرجات والأكاديمى خلف مسجد النور .وليست مبعثرة أكثر من بعثرة مستشفى قصر العينى القديم والجديد وأبو الريش واليابانى ومستشفى الباطنة والمدرجات والأكاديمى ومستشفى النساء... إلخ.ولكنهم ياسيدى أكثر منا قدرة على الربط و التوحيد، وتحويل الأنغام المتفاوتة والضربات المختلفة التون إلى سيمفونية واحدة .. هذه هى موسيقى الإدارة والتخطيط ياسيدى .

□□ خرائط واضحة .

□□ مسميات لا لبس فيها ولا تكرار تعتمد على الحروف والأرقام والاختصارات لا على الأسماء الطويلة أو الرنانة أو المكررة .

□□ لوحات إرشادية مبعثرة فى كل مكان .

□□ معمار جميل يبتدع أشياء من قبيل مايسمى بطريق السماء طريق مقفول لا مدخل له إلا من هذه المبانى - عال لا يشغل الأرض لا يقطعه المرور ولا يقطع هو المرور ، جدرانه من الزجاج تجعله واضحاً وتجعل السالك فيه مهتديًا تماماً إلى المواقع التى من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله . مزدوج الفائدة إذ تتم فيه أيضا برامج تأهيل المرضى بالمشى بعد العمليات الجراحية الكبرى .

وأعود بك ياسيدى إلى مبنى المعامل لأذكر لك أنه يحتل الكتلة الكاملة التى بين الشارعين الشرقيين الثالث والتسعين والسادس والتسعين فكأنما الشارعان الرابع والتسعون والخامس والتسعون جزء من كتلته لو كان لهذه الكتلة أن تنقسم على نحو ما تقسمت فى مواضع أخرى من المدينة . وها أنت

تدرك الآن أننى لا أذكـر لك الشارع الســادس والتسعين إلا لأحدثك عن مبنى جديـد يطل عليه .. نعم ياسيـدى هناك مبنى للبحوث يطل عليـه . إذن وعلام يطل مبنى البحوث الجديد هذا ومبنى المعـامل من ناحيتهما الأخرى .. إذا كانا يطلان بواجهتيهما على شـارع كارنيجى فإنهما يطلان من الناحية الأخرى على شـارع سيدار . وهو مواز لكارنيجى ويوكليد .

ياالله .. هل رأيت إلى الآن كيف تمتد المستعمـرة لتطل على ثلاثـة شـوارع رئيسية كبرى مـن التى تعبر كليفيلاند مـن شرقها إلى غربها .. وسيأتـى ذكر الـرابع والخامس فيما بعد . لم يعـد أمامنـا كثير .. فها نحن الآن فى الشــارع الشرقى السادس والتسعين الـذى تستطيع أن تصفه بأنه الشــارع العرضى الذى ينصف المستشفى تماماً أو هكذا يبـدو لك فى الخريطة وفى الواقع .. أنت الآن تدرك أيضــاً لماذا يطلق على المستشفى رقم ٩٥٠٠ يوكليد لأنها يـاسيدى (أو لأن بابها القـديم) كـان على شارع يوكليـد فى المربع الـذى بين الشارعين الشرقيين ٩٥ و ٩٦ وهكـذا تستحق رقم ٩٥٠٠ ـــ لعلى أنتهـز الفرصـــة هنـا لأشرح للقارىء أن الأرقـام الضخمة التى يجدونها للبيت فى الشــوارع ليست ذات دلالة على أن هـذا الشارع ٩٥٠٠ بيت مثـلاً . وأحيانـاً تصل االأرقام إلى خمس خـانات وليس معنى هـذا أن البيـوت فى الشارع (أو الطـريق تصل إلى تسعة وتسعين ألـف .. ولكن المسألة فى منتهى البســاطة أنهم يتركون خــانتى الآحـاد والعشرات للبيـوت التى فى المربع حتى ولـو كـانت بيت واحـداً .. لماذا ياسيدى يفعلون هذا ـ حتى يسهل التعرف على موقع البيت فى الشارع الطويل بمـوقع الشوارع العـريضــة فأنت فى منتهى السهـولة تستطيع أن تـدرك أن ٩٥١٠ شـارع كارنيجى يكون موازياً لـ ٩٥١٠ شـارع يوكليد .. وهكذا دعنى لا أترك هــذه النقطة الا بعد أن أذكـر لك أن مؤدى هـذا كثيراً من الشوارع لن تبدأ أرقـامها من رقم ١ ولا حتى من رقم ١٠١ وخذ على سبيل المثــال الشارع

الـذى سكنت فيــه أنه يبدأ بـرقم ٢١٠٣ ومعنى هذا أن حـدوده على الخريطة لاتبـدأ إلا عند الشـارع الشرقى الواحـد والعشرين وهكـذا . وفى أمريكـا تجد الشوارع التى تمضى من الشمال والجنوب تحمل أرقـاما ، أما الشوارع التى تمضى من الشرق إلى الغــرب فتحمل أسماء . وفى مــدينـــة واشنطن تحمل شوارع الشرق إلى الغـرب حروفـاً بالإضـافة إلى الأسماء. لم أجـد هذا الشرح مكتوباً فى كتاب ولكنى أجهدت نفسى حتى استنتجت، ولم أحصل على إعتماد رسمى له بعـد ولكنى مع هذا أحب إن أقول لك إن بـوسعك الاعتماد على هذه المعلومات.

أعـود بك يـاسيدى إلى الشــارع الســادس والتسـعين حيث يفتح الفنـدق الخاص بالكلينك أبوابه على الشارع .. وفوق هذا الشارع يمر طريق السماء .. وعلى هذا الشارع نوافذ عديدة لمبنى البحوث ومبنىF ومبنىG ومبنى L ومبنى للبحوث غير ذلك المبنى المتصل بالمستشفى F وهو مبنى البحوث الثانى الذى يطل على سيدار والسادس والتسعين . على هــذا الشارع أيضاً يطل مبنى كبير جداً ومهم جداً لا يقدر قيمته غير المصرى الذى يذهب القاهرة من حين إلى آخر فيرى الجراجات متعددة الأدوار ويشكر للحكومة جهدها فى بنائها .

هذا هو الجراج الثانى من جراجات المستشفى واسمه جراج شارع يوكليد يطل من الشمال على يوكليد ومـن الشرق على السادس والتسعين ومن الغرب على مدخل المستشفى (بحيث يكـون على يدك اليسرى وأنت داخل المستشفى مقابلاً لمبانى T&S ومحاذياً لمبنى البحـوث المتصل بالمستشفى F وبين مبنى شارع يـوكليد طريق صغير اسمــه طريق الكلينك تمر بــه كل السيارات التى تريد أن تأتى من كارنيجى إلى باب المستشفى.

يحتل الفندق (وكذلك مبنى البحوث الثانى المطل من بعد على سيدار] مربعاً يمتد ما بين الشارع السادس والتسعين والشارع المائة وفيما بين الشارع الشرقى المائة والشارع الشرقى الثانى بعد المائة هناك الهرم الضخم أقصد المبنى الجديد ذا الأدوار الخمسة عشر على هيئة الهرم الذى أفتتح عام خمسة وثمانين .. وهو مبنى A وكل هذا المبنى مخصص للعيادات الخارجية .. والعيادات الخارجية هنا تتسع لتشمل كثيراً مما نسميه فى الطب بالـProcedure أو العمليات التى يقوم بها الأطباء الباطنيون كالمناظير مثلاً ـ وكذلك القسطرة فى القلب ، ولو أن القسطرة هنا مرتبطة بمبنى المستشفى نفسه لارتباطها الآن بكثير من الجراحات.

وفى الحقيقة أننا فى مجال الطب فى البلاد المتكلمة بالعربية لم نحدد حتى الآن كلمة لمثل هذه العمليات Procedure ومع أنه يصدق عليها كلمة عمليات بالفعل ولهذا فإنه يمكننا أن نقول عنها العمليات فحسب ونخصص كلمة الجراحات للعمليات الجراحية .. ويصبح الفرق واضحا بين الـ Procedure والـ Operation أو بين العمليات والجراحات إلا أن هذا الذى أقترحه الآن فى هذه الفقرة لم يجد مكاناً على أرض الواقع بعد، ربما يأخذ أساتذتى وزملائى بما أرى . ولكن من الصعب (خاننى القلم ــ أريد أن أقول وليس من الصعب) أن يتفهم الجمهور فى المستقبل ذلك الفرق حين يرى اللافتات وقد كتب عليها حجرة العمليات ولافتات أخرى وقد كتب عليها حجرة الجراحات.. فأنا من الذين يحسنون الظن بالجمهور إلى أبعد الحدود.

وأذكر أننى كنت من الحريصين دائماً على لفت الأنظار (بل والتغيير باليد فى كثير من الأحيان) فيما يتعلق بتسمية الأمراض الباطنة ـ كانت كشوف أقسام الكليات ووزارة الصحة تسميها الباطنية ـ وكنت لا أترك فرصة التنبيه

إلى ذلك حتى مع الموظفين الـذين يكتبـون الكشـوف فى الكليات المختلفـة حين كنت أتـولى إصدار الخبرات الطبيـة ـــ لا أزعم أننى صاحب دور كبير فى هـذا التصـحيح ، ولكنى أستطيع أؤكد أن أحداً من حوالى خمسين نبهتهم إلى هذا لم يـرفض ما طلبت إليـه وهذه نسبـة عاليـة جداً من الايجابيـة التى يتمتع بها شعبنا العظيم العريـق ومن الطريف أن واحداً من أساتذتـى الأفاضل قال لى مازحاً اللـه يفتح عليك، ريحتنا من سيرة الباطنية بكل ما فيهـا من موبقات .. يقصد السمعة التى يتمتـع بها حى الباطنية فى تسويق المخـدرات . وقد أفدت بالطبع من هذه اللمحة .

إلى الجنوب من مبنى A نجد الجراج الثالث واسمـه جراج الشارع المائة .. يطل على شارع كارنيجى بواجهته البحـرية ويطل بواجهته القبلية على شـارع وليبر وهـو شارع طـولى آخر يقع بين كـارنيجى وسيـدار . ولا يبدأ إلا بعـد الشـارع المائة .. فيما بين كارنيجى و وليبر وإلى الشرق من جراج الشـارع المائة نجد مبنى E وهو مبنى مستشفيات .

وفيما بين كارنيجى ويـوكليد وإلى الشرق من مبنى A الضـخم نجد ثلاثة مبان متـالية مبنى الغسيل الكلـوى ويحمل حرفD وبعـده مبنى يحمل اسم يوتر ميللين ثم مركز حصوات الكلى الأولان فيما بين ١٠٢ و ١٠٥ والأخير إلى الشرق مـن ١٠٥ . إلى هنـا ياسيـدى تنتهى كل مستعمـرة الكلينك التى على يمينك وأنت قادم فى يوكليد من غرب المدينة ومن وسطها ـ إلى شرقها . كل هذا على يمينك وكل هــذا متصل تمامـــاً ببعضـــه حتى مبنى A بطـريق السماء بالإضـافة إلى الأتوبيسات الخاصة التى تنتقل بين مبانى المستشفى .

مـاذا عن اليسار ؟ مـا هى المبـانى التى إلى يسارك وأنت قـادم من وسط المدينة فى يوكليد. هنـاك إلى الغرب وقبل أن تصل إلى أول باب للمستشفى على

يـوكليـد .. هنـاك وقبل الشـــارع التـاسـع والثمانين تجد مبنى من مبـــانى المستشفى يقع مـا بين يـوكليـد إلى الجنـوب وشيستر إلى الشمال، وفيما بين التاسـع والثمانين والتسعين هناك متحف كليفيلاند للوعى الصحى وفيما بين التـاسـع والثمانين والتسعين تجد مسـاحة كبيرة من الأرض الفضـاء ولافتـة ضخمة تحمل عنوان برج الكلينك لا أدرى هل سيقـوم فيها هرم جديد ضخم ولكنى أعتقد أنـه لابد من ذلـك ربما بعد ٢٠٠٠ مباشرة !! و فيما بين الثـالث والســابع والتسعين يقع بيت الضيـافة الخاص بـالكلينك. وفيما بين الســابع والتسعين والأول بعـد المائة مبنى W وهو مـركز شيستر للمـؤتمرات .. وهو المبنى الذى نحصل منه على البادج الذى نمرره من ظهره فى الأبواب فتنفتح وفى عوائق الجراجات فترتفع ونمضى به فى طرقـات المستشفى وحجراته فيعرفنا زملاؤنا ويعرفون كل ما يحبون عن تخصصاتنا ومكانتنا.

الفصل السادس

فى قسم القلب بكليفيلاند

أحب أن أصـور لك بعضـــاً من الطب الأكلينكى فى مجال القلب (Clinical Cardiology) وكيف يمارس الأطباء الأمريكيـون الطب على الرغم من انغماسـهم إلى آذانهم وربما إلى أعلى من آذانهم فى الطرق الحديثة للتشخيـص (الدراسات الكهربائية الفسيولوجية ، أو الدراسـات غير النافذة بالموجات فوق الصوتية، والطب النووى ، والرنين المغناطيسى، أو بـدراسات رسم القلب ذى المجهود أو الديناميكى فضلاً عن دراسات القسطرة وتصوير الأوعية) .

سـأجلسك معى عند واحد من هؤلاء الأطباء الذين ينتمون إلى هيئة الأطباء Cardiology Staff بعد أن انتهى من معمل القسطرة . هذه هى أولى المرضى وهى سيدة فى الـرابعة والستين من عمرها نطـالع فى ملفها المتضخم تقريـراً مطولاً بنتيجة الفحص الأكلينكى الـذى أجرى لها ، والفاحص ليس معنا ولا أمـامنا وكأننا إذن فيما نسميـه فى امتحان الـدكتوراه المصرية بـالحالة المطـولة التى يفحصها الفـاحص (طالب الدكتـوراه) ويكتب كل شىء عنها ويمضى لحال سبيلـه من دون أن يحضر أمـام الممتحن ! الفحص أكثـر من ممتـاز ، دقيق ، وشامل ، ومنظم ، وقد استطاع الفـاحص أن يستقصى كل شىء تقريباً حتى تـاريخ العـائلة كلـه بـدءاً من الأم والأب والأخـوات .. إلى الجدود إلخ . وكيف

انتقلـوا إلى العالم الآخـر . صـدق أو لا تصـدق أن الذى يتـولى هـذا الفحص ممرضـة (أو ممرض) على مستوى عال من الكفاءة والتمرين والدراسات العليا بعد نيابة متصلة متواصلة .

هذه هى الأشعـة وهذا مـا نسميه (ظل العملـة) فى رئة السيدة والـذى قد يوحى لنا أن هناك شيئاً سرطانياً مثـلاً قد أصاب هذه الرئة .. وبخاصة أنها مدخنة لم تتوقف عن التدخين ، وأن أشعتها منذ ٤ سنوات لم تكشف عن هذا الظل . السيـدة لم تأت إلينـا لهذا السبب بـالطبع وإنما جاءت تشكـو سرعـة ضربات قلب ، ورسـم القلب ينبىء عن أنها مصابـة بالرجفـان الأذينى Atrial Flutter وهى حالـة علاجهـا سهل وميسور ولكنه سيـدوم معها لفترة طـويلة واجتماع هـذه الحالـة مع شىء فى الرئة لا بـد أن يجعلنـا نبحث عن الطبقـة البطـانية من القلب وهـل أصابها ارتشـاح أم لا . وفيما عـدا هذا ليس هنـاك ماتشكو منـه السيدة سوى أنها تظن أن هذه الضربات قدتكـون نتيجة لحالة الضيق التى اعترت أحد شرايينها التاجية من قبل واستدعت توسيعه بالبالون - وأودعت فى ملفهـا صور شرايينها قبل التوسيع وبعـده بما ينبىء أن عملية التوسيع بالبـالون قد نجحت . و يضم ملف هذه السيـدة مالا يقل عن مائتى صفحة . و ليس فى تحليلاتها الحديثـة إلا زيادة فى نسبة Alkaline Phosphatase وهى زيادة يمكن التعويل عليها فى ترجيح احتمال وجود إصابة ورمية ما .

و بعد الفحص اكلينكى كامل يضع الطبيب قراره أمام مريضته :

- لابـد من إجـراء أشعـة مقطعية على الصـدر. ولا بـد من إجـراء تحليل الدرن. و يقوم الطبيب بنفسه إلى سكرتارية العيادة الخارجية للتوصية على تنسيق هذه المواعيد فى الغد ثم يعود إلى مريضته بالمواعيد !!
- لا بد من إجراء تحليل للغدة الدرقية رغم أن الفحص الإكلينيكى قد أظهر سلامتها ولكن لا بأس من الأطمئنان ..

□□ فيما يتعلق بعملية التوسيع وتقييم مدى نجـاحها لا بد من إجراء اختبار رسم قلب بالمجهود بعد الفراغ مـن التحليلات السابقة .. وفى ذات الوقت لا بد من فحص القلب بالموجات فوق الصوتية !!

□□ لا بد من أن يتـولى طبيب صدر فحص الصـدر وأشعته ونتـائج الأشعة المقطعية .

□□ لا بد من إيقاف التدخين . لا بد من فحص الثدى كل عامين ، ومن المرور على طبيب أمراض النسـاء والولادة كل عامين .

□□ هذا هو الديجوكسن وهذه هى جرعته!

الحالة الثـانية رجل قـارب الثمانين تصحبه زوجته ، يفـاجئة ظـلام أمام عينيه Syncope حينـاً بعد حين . لـه آراؤه الـذاتية فى الطب والأدويـة .. الطبيب يحترم آرائه من دون أن يسلم بصحتهـا ، والمريض معتـز بـآرائه .. والطبيب يكـرر احترامهـا ثم يلفت نظـره إلى أنها آراء شخصيـة . وسـوف نجـرى لك يـاسيـدى الفحـوص الكفيلـة بأن تكتشـف سبب هـذا الـذى يحدث لك وإذا استـدعى الأمـر عـلاجـاً فى المستشفى كمـريض داخلى فسـوف نخبرك بالتشخيص ولك وحـدك مسئولية اتخاذ القـرار ... قد تحتاج إجـراء دراسات كهروفسيولوجية قـد تقتضى أسبوعين من البقاء فى المستشفى ، ونحن نعرف أنك لا تريد ذلك ولكننـا سنرى فى الغد فى معمل القسطرة مـا هو القرار الأمثل لحالتك .. وهـذا المريض لا يقل إرهـاقـاً لطبيبـه عن أى مـريض من مـرضى الشرقيـة الـذين يقتلـون الـدكتـور لطفى شهـوان كل ظهيرة وكل مسـاء .. والصعوبـة فى هؤلاء المرضـى ياسيدى القـارئ وأرجو ألا تكـون منهم أنهم يـريـدونك أن تـؤمن بما يقـولـون من تفسيرات ، لأنهم يـرونك تـؤمن على مايروون من أعراض! وشتـان بين الحالين ! ثم إنك إذا جاريتهم من باب أدب الاستماع إلى محدثك للنهايـة أصبحت فى نظرهم لا مجرد مـؤمن فحسب على كـلامهم ، ولا مجرد مـؤمن بكـلامهم ، وإنما أصبحت بحكم هـذا الإيمان

الظاهرى الذى يتـوهمونه قد أصابك واحداً من الأتباع الـذين عليهم طاعة من يؤمنون به !!

ربما كان من الصعب عليك ياسيـدى القارىء أن تتصور أن هذا يحدث ، ولكن الأطباء الممارسين يعـرفون أن الـذى يحدث ليس إلا الصورة المكبرة من هذا التصويـر اللطيف الذى يكتبه واحد منهم فى ساعـة صفاء وتأمل ورضاء نفسى .

لا بد من الوقوف واستئـذان هذا المريض وزوجته .. والطبيب يقف ولكنى غير قادر لأنى أعـرف أن مثل هذا المريض سيـوقف الطبيب بعد كل هـذا مرة أخرى وأنا لسـت غير قادر على الوقوف أثناء هـذا الاستيقاف ولن أنهض من كرسىَّ حتى يفتح الطبيب بـاب الحجرة بيده اليسرى ويمد قـدمه اليمنى إلى خارجها .. وأقول لك أننى كنت على حق لأن مد يد الطبيب اليسرى إلى الباب لم يحدث إلا بعد عشر دقـائق ومد قـدمه اليمنى إلى خـارج الحجرة لم يحدث إلا بعد عشر دقائق أخرى .. وكانت الدقـائق العشرون بالطبع كافية لاصابتى أنا الصائم المعانى من آثار التخدير فى الضحى باغماء حقيقى لا مجرد هذا الذى يشكو منه مريضنا فى بعض أحيان متفرقة .

المريض الثـالث رجل وسيم ضخم البنيـة ، يقدمنى إليـه الطبيب فإذا بـه يعرفنـى تماماً ، ويقول لنـا إنه رآنى من قبل حين كـان بأعلى Upstairs نعم أنا أعرف وجه هذا الـرجل وقد تذكرته من أول نظرة ، ولكنى أحسبـه أحد الذين حضرت قسطرتهم .. والقسطرة تجرى فى نفس الدور الثانى.. كيف يقول هذا الرجل بأعلى .. أهـو لا يعرف الأدوار !! ولكنى سرعان ما انتبه إلى الـرجل وهو يسألنى كم يتبقى من رمضان ياسيدى !! ياالله !! الرجل يعرف أننى صـائم فى رمضـان .. هذا لا يتاح لمريض القسطرة الذى ندخل فيه على عجل بعيداً عن كل طعـام وشراب .. الآن فقط تذكـرت .. هذا المريـض زرناه بعـد عملية تـوسيع

الشرايين وكان فى الدور السـابع .. أصاب المريض وأخطأ الطبيب الذى يحسن الناس فى كل مكان الظن بـذاكرته الحديدية .. أو التى علاهـا الصدأ ، و علاها الصدأ تعبير متفـاءل بديل عن التعبير الأكثر صـواباً وهو أنهكهـا الصدأ كما ينهك الحديد .. وليت ذاكرتى كانت خشبية فقط !!

هـذا الـرجل يتعـاطى مـا لا يقـل عن اثنى عشر دواء ومن واجبنـا اليـوم الخميس أن نعيـد تنظيم هذه الأدويـة له قبل خـروجه بيومين فمـن المقرر أن يخرج السبت ولا بد من أن نطلع على آثار سياستنا الدوائية فى خلال الساعات الثمانى والأربعين القـادمة قبل أن يخرج ويسـافر ويشكـو بالتليفـون!! هذا الـرجل تصـحبه زوجتـه وهى سيدة ممتـازة ، لا تزال رغم سنـواتها السبعين محتفظـة بروح التلميـذة المجتهدة ، معهـا بطـاقات صغيرة بتفصيـلات كل شىء، بالأمس صباحاً فى الثامنة صباحاً أكل زوجها كذا وكذا ، وبعدها بسبع دقائق تقىء تقـريباً كذا وكـذا ، وبعدها بسـاعتين تناول مشروباً وفى الثـانية وعشر دقائق اشتكى من كـذا .. ثم إنه فقد حـوالى كيلو جرام من وزنـه ! كان مائتى رطل وأصبح ١٩٨ ، ولا تنس يـاسيدى أنـه حين دخل المستشفى كان وزنه ٢١١ رطـلاً . وكل دواء وكل جرعـة مسجلة فى هذه البطـاقات الصغيرة التى تحملها هذه السيدة العظيمة فى جيب معطفها ومعها قلمها ، وهى تستمع إلى كل ملاحظـة يبديها الطبيب وتسجلهـا من فورها فى الموضـع المناسب من هذه البطاقات وزوجها هـو الآخر رجل عظيم ، نقاشه يعطيك الإيحاء بأنه من الذين يجيدون معاملتك على أنك برىء حتى تثبت إدانتك مع إيمانه التام بأنك متهم حتى تثبت بـراءتك! وأنتهز فـرصـة انشغال الطبيب الأكبر فى الـرد على تليفون لأسأل السيدة عن مهنـة زوجها .. كان ياسيـدى قبل تقاعده يعمل فى شركة تأمين ، كان يتولى فحص قضايا التعويضات كلها .. صدق رسول الله : اتقوا فراسة المؤمن! .

هـا نحن ننتهى مع السيدة إلى إيقـاف حبـوب البوتـاسيوم نهائيـاً ، وإلى

الإمساك عن مجموعة أدوية المعدة والأمعاء والكولشسين الخاص بالنقرس حتى تهدأ المعدة من تهيجها ، ثم ها نحن نعيد تنظيم جرعات الكابوتين والكوردارون والديجتالز واللازكس كل هذا قبل أن نقوم إلى حجرة الكشف .

فى حجرة الكشف يكتشف الطبيب أن جرحاً فى الساق لم يلتئم من القصد الأول .. فيذهب بنفسه إلى السكرتارية ليستدعوا أحداً من الجراحة .. لا بد من أخذ مسحة من الجرح لإجراء مزرعة ـ و يأتى رئيس التمريض الجراحى ويتولى تنظيف الجرح وربطه ـ وها نحن نضيف مضاداً حيوياً جداً هو الأوجمنتين ولا بد من كتابة روشتة للسيدة بالأدوية التى ستحتاجها طيلة شهر كامل وباعدادها على وجه التحديد ـ تسعون قرص من هذا ، وأربع وعشرون من ذاك ، وثلاثون من ذلك ، وهكذا وليس هناك شىء بالتقريب فى هذا البلد ، فالتحديد قد يكلفهم شيئاً من وقتهم عند التخطيط ولكنه يوفر لهم أضعاف ما ينفقون فيه .

بعد كل هذا يتلطف الطبيب فى إخبار الزوجة بأنه سيكون سعيداً لو طلبه طبيب الولاية التى يقيمون فيها تليفونياً ، وسأله عن كل شىء أو عن أى شىء فإن ملخص الخروج لا يغنى شيئاً عن حديث التليفون!! مع أن هذا الذى يسمونه ملخص الخروج ست صفحات مكتوبة على خير ما تكون الكتابة على الآلة الكاتبة وفيها كل شىء .. ولكنه معنى آخر من معانى الإنسانية! والسيدة تعقب وتحكى لى أنهم كانوا فى زيارة إبنتهم قرب بوسطن وكانوا يظنون أنفسهم يعودون إلى ولايتهم فلوريدا بعد أسبوع وهاهم لا يعودون إلا بعد ستة أسابيع!!

أظننى ياسيدى القارىء قد أطلت عليك فيما لا أظنك مغرماً به من هذا الذى نراه كل ساعة أو فى كل ساعاتنا .. لا عليك ولا علىّ من هذا التعذيب. تريدنى ياسيدى أن أنتقل بك من حجرات الكشف الباطنى إلى معامل القسطرة وعندك حق .. لك الحق فى أن تمل عملنا الإكلينيكى وأن تمل القراءة

عنه فى كتاب رحلات .. ولكنى لا أظن أن لى الحق فى أن أتجاهله وأنا أحكى لك .. هل كان فى وسع المتنبى أن يسكت عن شعب ومـا فيه ؟ نعم أن الشِعْب لشىء جميل .. ولكن أجمل منه الحضارة التى نعيشها اليوم .

وأنـا أعـرف أن مهمتى فى كتـابة رحـلاتى شـاقـة عسيرة لأنى لا أصف الطبيعـة كما فعل الـذين سبقـونى .. ولكنى أحـاول أن أصف الحضـارة ، ووصف الطبيعـة لا يستلزم إلا الحاسـة الصـادقـة .. أما وصف الحضـارة فيستلـزم مـع هـذه أقـدارا متنـاميـة من الـدقـة والإحـاطـة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة ، أن تكون جنديـاً قارب نيل الشهادة وأثخنته الحضارة بآثار عمله من أجلها قبل أن تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما استمتع بها .

فلنأخـذ يوماً من الأيـام التى سعدت فيهـا بالعمل فى معمل القسطـرة مع الـدكتورين جـريجبرا وفكس هذه هى أسماؤهم الأخيرة أمـا أسماؤهـم الأولى التى نتنـادى بها فهى فرنـانـدو وجيمس . بدأنـا بحالـة مـريض بالشريـان التاجى.. نحاول أن نوسعها بالبالون . لم تفلح محاولة البالون .. كان فرناندو جاهـزاً بالآلة الجديدة التى تقطع أو تمزق أو تفتت هـذا التصلب الموجود على بطانة الشرايين .. وها هو يفعل ويذيب هذه التصلبات التى فى الجذع الرئيسى للشريان التاجى الأيسر ، و فى الفرع الـدائرى. الحالة الثانية ألم فى الصدر غير معروف السبب ، وهـو محول إلى هذا الصرح لنرى موقف شرايينـه التاجية .. بدأ فيكس فركب القسطرة وأتم كل التحضيـرات وحين جاء فـرناندو وصورنا المناظر الروتينية كلها اتضح أن شرايين الرجل كلها لا تعانى من أية ضيق .. سجلنا كل هذا وأجـرينا بالطبع ما لا بـد من إجرائه فى كل حالة وهـو تصوير البطين الأيسر بالصبغـة بينما كنا ننـادى على المريض الثالث فقـد أما المريض الثالث أتاه احتشاء قلبى منذ أسابيع ثلاث و اتضح أن سببه خثرة thrombosis

اذبيت فى وقتها . وهو الآن محول إلى القسطرة قبل أن تجرى له عملية الـ - By Pass يفحصه الدكتور جريجيرا فيجد الشرايين كلها مفتوحة ، ولكن الجذع الرئيسى للشريان الأيسر فيه ضيق لا يتعدى الخمسين فى المائة ! ولكن الضيق واضح ومع هذا تمتلىء الشرايين وتفرغ تماماً .. صحيح أن القلب لا يزال متأثراً بالندبة التى تكونت نتيجة الاحتشاء ولكن الإمداد الدموى سليم .. هل تُجرى لهذا المريض جراحة قد تكلفه حياته وهو الذى لا يعانى من شىء الآن! أم نتركه معرضاً لخثرة أخرى قد تكون كفيلة بالقضاء على حياته ـ وهو فى الخامسة والأربعين . هذا هو السؤال الذى أخذنا نحاول الإجابة عليه لمدة ساعتين .. بعد أن جاء الدكتور تايلور الجراح المحول إليه المريض .. وبعد أن اشترك معنا فى الحديث طبيب القلب الدكتور كايسر .. كنا أربعة نتحدث بينما جيمس صامت .. فلما قاربنا على الإفتراق صمم الجراح الكبير على أن يسأل جيمس ما رأيك وهو يعرف أن جيمس لن يقول شيئاً لأنه لو أراد لقال منذ مرحلة مبكرة ولكن الأستاذ حريص على أن يرضى ضميره الذى تعود على سماع كل وجهات النظر.

أما معامل الموجات فوق الصوتية فتضم ١٦ جهازاً وهى بالتالى قادرة على أن تؤدى ٨٠ ــ ١٠٠ حالة فى اليوم ــ ولكنها فى المتوسط تجرى ٢٥ حالة فى اليوم لأنها تعمل كل يوم ولا تكف عن العمل وليس هناك طابور طويل يقف فيقف كل من فيه .

وفى وسع الأمريكان أن يستمعوا إلى الرأى القائل بأنه لا ينبغى لهم أن يشتروا جهازاً جديداً ولا أن يضيفوا إلى الأجهزة الجديدة آخر ما دامت الأجهزة الموجودة من قبل لم تستنفد طاقتها ٢٤ ساعة .. كما ينادى بعض البيروقراطيين المصريين الذين يرتدون مسوح الثورية الشديدة فى الوقوف أمام كل توسع فى الامكانات الموجودة فى مواقع الإنتاج . ولكن هؤلاء الأمريكيين

قوم تعلموا منذ زمن حكمة الخالق جل علاه الذى جعل لكل عضو من أعضاء الجسم احتياطى كبير بحيث لا يحس الجسم أى أثر طارىء يعترى أى عضو من هذه الأعضاء.

فنيو الموجات فوق الصوتية والمرضات هم الذين يقومون هنا بالفحص، و لكن الأطباء وقد خلت أيديهم من المسابر (المجسات) يقفون على رؤوس هؤلاء فى كل حين يراقبون ويصححون ويتدخلون ويعيدون منظراً أو صورة ويتأكدون من قياس أو نتيجة ويناظرون جلطة أو كتلة أو أنوريزماويتتبعون مسار حلقة عضلية أو جهازاً من أجهزة تدعيم الصمام الترالى .. وهكذا .

وكل هؤلاء عندهم فكرة أننى قادم اليوم وأن « كيف» ينتظرنى ولكنه مع حالة فى حجرة ، ويتكرر أمامى اسم «كيف» هذا وفى النهاية إذا به دكتور عاكف أبو الرميلة من الضفة الغربية ، وفيما بعد أسبوعين وجدت ممرضات الأدوار العليا يختصرون اسمه بطريقة أخرى فيسمونه الدكتور «أبو» لأنهم لايعرفون كيف ينطقون «الرميلة» وقد سبقه إلى هنا طبيب فلسطينى آخر كان واحداً من فسلطنيين عديدين هيأ لهم الدكتور جبران الفرصة للعمل فى المستشفى من خلال هيئة فلسطينية محترمة مقرها فى سويسرا تتولى تمويل تعليم هؤلاء إلى الحد المتاز الذى يجعلهم بمثابة مراجع عليا فى الضفة الغربية المحتلة . وهذه الهيئة المتازة لا تكتفى بتعليم هؤلاء وإنما تزودهم فور تخرجهم بالأجهزة التى يعملون عليها ـ ويحرصون فى اختيار هذه الأجهزة أن تكون أحدث وأعظم الأجهزة المتاحة ـ وفى القدس الآن واحداً من أحدث أجهزة الموجات فوق الصوتية يتولى تشغيله طبيب فلسطينى نابغ تلقى تدريبه هنا فى كليفيلاند .

ويبدو أن المجتمع الدولى قد بدأ ينظر نظرة مختلفة إلى عرب الضفة الغربية وغزة ، فهذا مكتب الميدايست يبتعث المرضات من الضفة الغربية إلى

مستشفى كليفيلانـد ، والضوء الأخضر فى الوظـائف الأمريكية مضـاءاً تماماً اليوم أمام الفلسطينيين، و الله تعالى أسأل أن يفك كربهم جميعاً .

وأحب أن أتناول الآن الحديث عن زملائى فى الرعـاية المركزة فقد يعطيك هذا صورة حية عن الأطباء الأمريكين الشبان .

هناك هيكل واضح فى الرعاية كما فى كل مكان.

هناك ثلاثة نواب يقضون فترة نيابتهم.

وهناك ثلاثة زملاء فى عامهم الأول من الزمالة .

وهناك اثنان من الزملاء فى أعوامهم المتقدمة من الزمالة.

أما النواب الثلاثة فهم مور More وهو شخص ضخم البنيـة حسن الخلق وحسن الخلق أيضاً عمل نائباً للعظام فى بدايـة نيابته ولكنه سرعان ما تحول إلى الأمراض الباطنة وهو جيد الاستماع جيد الفهم .

جاستون شتيرن Stern تخرج تبعاً للنظام الـذى يعطى شهادة .D.O وهو دودة كتب كما يقولون ولكنه لطيف ومتواضع رغم كل ما قد يبدى من غرور، إذا قدم حـالة وكثيراً مـا يفعل فإنه يفيض فى تفصيـلات لا أول لها ولا آخر ، ولكن ميـزته الكبرى ــ كطبيب ــ أنه حـريص على تفسير كل شىء فى ضـوء مايعرف وحين لا يعرف ـ وقليلاً ما يحدث ــ تراه ينتقد نفسه إلى حد أنه ذات مـرة بدأ حـديثه عن الحالـة (وكانت حـالة لاعتـلال عضلة القلب من النـوع المتمدد) بالقول بأنه لا بد أن يـرميه الأستاذ من الشباك !! هكذا لأنه لم يحقق نجاحاً فى العلاج.

النائب الثالث هـو نبيلة رحمة الله باكستانية وقد ابتـدرتنى فى أول أيامنا بـالقول : أنت صـائم ومن المفترض أننى كـذلك ولكننى كما تـرى لا أستطيع الصوم فى ظل هذا العمل ، وإلا كانت حماقـة ! ونبيلة ملمة تماماً بكل المنهج ـ

عندهـا فكرة واضحة عن كل فصـول كتاب «القلب» وربما ساعـدها على ذلك أنها تحمل فى جيب معطفهـا الأبيـض مـذكـرات ملخصـة لـلأجـزاء التى لم تستوعبها بعد من موضوعات القلب .

وقـد أتيح لى ذات يـوم أن أطلـع على كتـابها الخاص « سيسيل لـوب» فى الأمراض الباطنة فأدركت كم عانت هذه الفتاة فى سبيل دراستها للطب. ولابد أن أسجل أن " نبيلـة " التى كانت أصغـر من ميشيل ومن جاسـون لم تكن تقل عنهما أبداً لا فى مستواها العلمى ولا فى المستوى المهنى.

يساعد هـؤلاء النواب الصغار أو يشرف عليهم ثلاثة آخـرون من الزملاء الـذين أنهوا لتـوهم فترة النيـابـة . ريتشارد جـريم نموذج بـارز للوسـامة الأمريكيـة حيث تجد شعره قد نسُق بـالليل وكل ليل بحيث يعطى فى الصباح ذلك المنظر الجميل لخصلة تأتى من الشمال إلى اليمين تتقـدم الرأس بخمسة سنتميترات على الأقل ــ ووجهـه الأبيض وعيونـه الزرقاء يعطيـان لهذا الشعر الأصفر بعـدين آخرين ــ ثم هو هـادىء الأعصاب ، خفيض الصـوت ، وهو النموذج الأمثل فى نطقه الأمريكى للغة الإنجليزية (على طريقة الفرنسيين) بما يحذف من ثلاثة أرباع الكلمة.

واعتقـد أنك تعـرف أن الأمريكـان يختصرون كل مـا يمكنهم اختصاره ويحولون الكلمات إلى وهذا هو الآخر بـدوره يختصر كل الكلمات إلى حرفيها الأولين وحين يفعل ذلك فى براءة يبدو لك كما لو أنه لن يستطيع أن يكمل نطق الكلمة وإلا ذهب ضحية استكمالها ..

ريتشـارد يقضى عامـه الأول فى زمالـة القلب ولهذا يضغط عليه الأطبـاء الكبار بالأسئلة العلمية وينتظرون منه دوماً أن يجيب بمجرد البدء فى السؤال، وكثيراً ما يكون عند حسن ظنهم .

فيليب جرين Green نموذج آخـر للهدوء النفسى والتـواضع والالمام التام بعمله وبعمل غيره . لا تكـاد تدرك أبـداً أنه من الفئـة المتوسطـة بين النواب ، وإنما يعتريك الشعور دائماً أنه من الصغار ، نظراً لتواضعه ، و اندماجه التام فى عملهم . بلا إنه كثيراً مـا يتولى قراءة الشيت بدلاً منهم ـ وعلى قـدر تعاطفه التام مع زملائه اللاحقين فإنه حريص على أن ينبه إلى أية ملاحظة ذات شأن اكلينيكى تفوتهم أثنـاء النقاش وهو حين ينبـه إلى ذلك خفيض الصوت ، حيّ ولكنه قاطع باليقين .

الثالث Holden كـان فى أجـازة ولكنـه حين عـاد كنت قـد انتقلت إلى معمل القسطرة فلم أتعامل معه كثيراً ولكنه فيما اتضـح من حديثنا المتكرر ولقاءاتنا العابرة شخص نبيه منتبه ، سليم الفطرة.

إذا انتهينا من هـؤلاء الستة بقى لنـا الإثنان الكبيران . أمـا كلفن فهو من أصل أيـرلندى وهـو فى التاسعـة والثـلاثين من عمره وقـد وصل فى الطب إلى مرحلة الـStaff ولكن فى فرع آخر هـو طب الطوارىء حيث قضى ٦ سنوات فى طب الطـوارئ بالطيران وغيره واكتسب خبرة كبيرة فى هـذا المجال ، وكـان قد قضى ٣ سنوات نيابة فى الأمراض الباطنة . ثم إذا هو يبدأ الزمالة من جديد فى أمراض القلب. ربما كان محظوظـاً أن النظام الطبى سمح له بمثل هذا التغيير بعد كل هذا الوقت ، وربما كان ملاماً من زملائه أن يبدأ من جديد . ولكنه على أى الأحوال سعيـد بهذا الذى هو فيه . كلفن هـذا هو المسئول عن مسـاعدتى طيلة وجـودى فى الرعايـة المركزة وهو لا يـدخر وسعـاً فى ذلك . له الفضل فى تعريفى على مهل بكل تفصيلات نظام التعليـم الطبى فى أمريكا وله الفضل فى تعريفى ـ التعريف العميق ـ بكثير من العاملين فى قسم القلب ومعامله ، وبكل الذين فى الرعاية المركزة بالطبع . وعنده قدرة ممتازة ـ ربما بحكم السن وربما بحكم الخبرة فى تخصصين مختلفين . على مَنْطقـة الحوار ـــ أقصـد أن يجعل للحوار رؤساً وعناوين كبيرة بدلاً من أن يتركه يمضى خبط عشواء .

ذات يوم بعد ما تعبنا من الوقـوف طيلة ساعتين ونصف الساعة فى مرور الرعـاية المركزة قلت لـه ولزميلـه مارك : لماذا تمرون وقوفـاً ـ لماذا لا تمرون جلوساً؟ قـال فى تعاقب : لو كان الأمر بيـدنا لمررنا جلوسـا ـ بعد أقل من ٢٤ ساعة كان الأمر بيدنا نحن الثـلاثة ـ أرسل إلينا الدكتور جبران لنبدأ المرور ـ نظرنا إلى بعضنـا ودعونا الزملاء والنواب إلى حجـرة المؤتمرات ومررنا ونحن جلوس!! كلفن متزوج مـن زميلة تحمل درجة .Ph.D فى العلوم وتعمـل معنا فى معمل الفسيولوجيا الكهربية (EP) فى قسم القلب ولهما ثلاثـة أولاد صغار لهم أسماء أيرلندية جميلة ـ بارك الله لهما فيهم .

الزميـل الثانى وهو مـارك رجل طيب يبلغ من العمـر ثلاثين عامـاً قضى نيابته فى نيـوجرسـى حيث عاش لفترة طويلـة من حياته ـ وحين تقدم لـزمالة القلب كانت رغبته الأولى مايو كلينك وكانت الثانية مباشرة كليفيلاند ـ تحققت لـه رغبته الثـانية ـــ وسط عـدد كبير من المتقدمين لـزمـالة القلب كل عـام فى الولايات المتحـدة الأمريكية . و مارك رجل عملى إلى أبعـد الحدود ، حين أسأله عن شىء فإنه كان يؤثر أن يمضـى معى إلى موضعه بدلاً من إضاعة الوقت فى الـوصف الصعب فى مستعمرة كبيرة . آراؤه فى الكتب الطبيـة قـريبة جـداً من رأيى إلى حد كبير. من العجيب أننا كنا نحن الثلاثـة متوافقين تماماً فى صياغة كثير من آرائنا فى أثناء المرور . تجمعنى بالزميـل الصغير موضوعية الرأى عن خبرة تكاد تكون متقاربة ، وتجمعنى بالزميل الكبير منطقية التفكير وتحكمها فى تصريف الأمـور. و مع هذين الـزميلين ومع أمثـالهما فى معامل القسطـرة والموجات فوق الصوتيـة والطب النوىّ من بعد أحسست أننى حيث ينبغى أن أكون منذ زمن طويل ـ لم أحس الغربة لا فى الفكر ولا فى الأداء .. كلاهما جدير بالاحترام وباعث على الاحترام وحريص على الاحترام .

أريد أن ألخص لك نظـام التعليم الطبى فى ولاية أوهايو كنمـوذج لولايات أمريكـا ـ لأنى أعرف أنك تعـرف أن لكل ولاية نظـاماً ، ولابد عنـد الكلام عن

أمريكا الواسعة من التحفظ ياسيدى ـ ومع هذا فإن هذه الصورة على كل حال سوف تعطيك فكرة عامة عن نظام التعليم الطبى فى أمريكا .

هناك بعد الثانوية العامة كليات ـ هذه الكليات اسمها College يدرس فيها الطالب لمدة ٤ سنوات ـــ بعدها هناك Medical School يدرس فيها الطالب ٤سنوات أخرى . إذن هنا الـــ College التى تناظر كليات الجامعة عندنا فى مرحلة البكالوريوس يتخرج فيها الطالب بما يوازى البكالوريوس ـ ويكون مهيئاً لأن يعمل مثلاً بالتدريس ، أو أن يعمل كباحث ، أو أن يحضر الماجستير أو أن يحضر الدكتوراه فى فلسفة العلوم التى هى Ph . D.

طبعاً قبل كل هذا يتمنى أكثر خريجى الكليات أن يكونوا مهيئين لأن يكملوا دراستهم الطبية فى المدارس الطبية ولكنهم بالطبع وطبقاً للنظام التعليمى ليسوا كلهم مؤهلين لدراسة الطب فى مدارسه .

وفى ولاية أهايو على سبيل المثال أكثر من ٢٠ كلية ـ يتخرج فيها ما يزيد على ثلاثة آلاف ومن بين هؤلاء تتاح الفرصة لأعداد قليلة فى ست مدارس طبية هى على سبيل الحصر على النحو التالى :

١ ـ المدرسة الطبية فى جامعة أوهايو الحكومية فى كولومبوس وتقبل ما لايزيد عن ٢٠٠ طالباً فى العام الدراسى .

٢ ـ المدرسة الطبية فى جامعة كيس ويسترن ريزرف فى كليفيلاند وتقبل حوالى ١٠٠ طالب .

٣ ـ الكلية الطبية فى جامعة سنسناتى Cincinnati وتقبل حوالى ١٠٠ طالب.

٤ ـ كلية أوهايو الطبية فى توليدو وتقبل حوالى ٥٠ طالباً .

٥ ـ المدرسة الطبية فى جامعة رايت الحكومية فى دايتون Dayton وتقبل حوالى ٩٠ طالباً .

٦ ـ كلية أوهايو الطبية فى أثينا ـ أوهايو وتقبل حوالى ٢٠ طالباً .

وهذه الكليــة بالـذات تسير حسب نظام أقل شيــوعاً فى أمريكـا تعطى من خلاله شهادة .D.O إختصـاراً لما يسمى (Doctor of Osteopathic) وهذه الشهادة فى النظام التعليمى الأمريكى معادلة تماماً لشهادة .M.D

وبالإضافة إلى هذه المدارس توجد الكليات الطبية الآتية : ـ

١ ـ كلية أوهايو الطبية فى سنسناتى .

٢ ـ كلية الطب Eclectic فى سنسناتى .

٣ ـ كلية ميامى الطبية فى سنسناتى .

٤ ـ القسم الطبى فى جامعة وسترـ كليفيلاند .

٥ ـ كلية توليدو الطبية فى توليدو .

٦ ـ كلية كليفيلاند الطبية فى كليفيلاند .

٧ ـ كلية كليفيلاند Puti فى كليفيلاند .

٨ ـ جامعة أوهايو الحكومية ـ كلية الطب Homeopathic فى كليفيلاند .

٩ ـ جامعة شمال شرق أوهيا ـ كلية الطب فى رووستون .

ويتخـرج من المدارس الطبيــة الست التى ذكـرناهـا عـدد لا بأس بـه من الدكاتـرة يحملون لقب .M.D فيكون أمـامهم طريـق مفتوح على النحـو التالى يبدأون سنة الامتياز Internship تليها سنوات النيابة Residency (التى تؤهلهم لشهادة البـورد الأمريكيـة فى التخصصات العـامة) تليهـا سنوات الـزمالـة Fellowship (التى تـؤهلهم لشهادة البـور الأمـريكى فى التخصصات الخاصـة كالقلب). فإذا أردت التخصــص فى الأمراض الباطنـة ، فإنك سوف تبـدأ بعام الامتياز فى الباطنة ـــ فهو بمثابة عامك الأول من النيابة وتكـون محتاجاً بعده إلى عامين آخرين فقط لتكون قد قضيت فترة النيابة .

الميزة الكبرى هنـا ـ التى أحلم بأن أجد سبيـلاً إلى تطبيقها فى مصر أن كل الخريجين يقضـون فترة نيابـة حسب ما يـرغبون من تخصصـات ، بل وفى

المكان الـذى يرغبونـه بقدر الإمكـان (تبعاً لترتيب رغباتهم ، كثيراً مـا تكون الرغبـة الأولى هى الأولى بالتحقيق). و لكن المأســاة التى أصرخ منها فى مصر هى مأسـاة الفـرص غير المتكافئـة. فعلى حين يلقى الطبيب المقيم الـذى نـال وظيفـة فى الجامعة حظـاً ممتازاً فى تعليم ممتـاز وفرص ممتـازة فإنه أيضـاً يحظى ببدء النيـابة مباشرة. أمـا الباقون فإنهم غـالباً ما ينتظـرون مالايقل أحيانـاً عن ٣ سنوات لبدء النيـابة . ربما لا يكـون الفرق بين الواحـد منا من المحظوظين وبين الآخرين إلا درجات قليلة. ومع هذا يكون الفرق حوالى ثلاث سنـوات فى بدء الخبرة الاكلينيكيـة التعليميـة. و المشكلة ليست فى السنـوات الثلاثـة وإنما فى تباعد الفترة بين الدراســة العلمية [بجانبيهـا النظرى العملى والاكلينيكى] وبين التطبيق الميدانى والاعتماد على النفس .

الميـزة الثانيـة التى أحب أن أتحدث عنهـا هى أنهم لا يبـدأون نيابـات فى الباطنـة الخاصة والجراحـة الخاصة كما حـدث وتوسعنـا فى هذا الاتجاه فى جامعات مصر. الله وحده يعلم أيهما الصواب أن نبدأ بالتخصصات الدقيقة فى مرحلة النيابة أم أن نؤجلها إلى مرحلة الزمالة .

على أية حـال أحب أن أضع أمامك صورة لتـوجهات خريجى إحـدى هذه المدارس الطبية الستة فى صياغة مستقبلهم العملى . المدرسة هى مدرسة رايت المسماة على اسم الأخـوين أصحاب محاولـة الطيران المشهورة . يتخـرج هذا العام ٨٤ سيتوزعون تبعاً لرغبـاتهم على النحو التالى: ٢٤ فى الأمراض الباطنة العامة ، ٨ فى طب الأطفال ، ٩ فى النساء والتوليد ، ٩ فى الجراحة ، ٤ فى الأشعة، ٢ فى التخـدير ،، ١٩ فى طب العـائلـة و٥٢ من الخريجين بنات ، ومن هـؤلاء قضت إحـداهن أسبوعين معنـا فى قسم القلب وكـانت تخطط أن تقضى فترة نيـابتها فى الأمـراض البـاطنة فى مستشفى صغير اسمـه مستشفى St. Lukes Hospital وهى تفضل العمل فى هذا المستشفى الصغير على العمل فى كليفيـلاند

لأنها أثناء دراستها درست فى الإثنين ووجدت [وهى على صواب] أن العمل فى سان لوكس سيكون أكثر فائدة وإمتاعاً لها لأنها ستشاهد حالات كثيرة من الأمراض شائعة وموجودة فى كل مكان، أما فى كليفيلاند فهى لن ترى إلا الحالات التى تقدم بها المرض واحتاجت القدوم إلى هذا الصرح العظيم .. أليس هذا التفكير لشابة فى مقتبل عمرها دليلاً على بشائر النجاح العملى والمهنى . وتضيف كيه (وهذا هو اسمها وهو اسم جاميكى ينطق كحرف الكية الإنجليزى تماماً) أن كليفيلاند كلينك ليس فيها النظام الجميل المريح الذى فى ذلك المستشفى الذى عرفت الناس فيه ودرست أحوالهم جميعاً.

بقى أن أطلعك على جانب مهم من حياة خريجى الطب وطلابه فكيه هذه متزوجة منذ أربع سنوات مع تأجيل الإنجاب . ، فى عاميها الأول والثانى فى المدرسة الطبية درست التشريح والبيولوجى والفسيولوجى والباثولوجى والفارماكولوجى والميكرولوجى والوراثة. و فى عامها الثالث آثرت الجراحة والنساء والأطفال وطب العائلة والنفسية. وفى عامها الرابع درست الباطنة والطوارىء والأشعة والتخدير والقلب والأعصاب والعظام.

أحب أن أحدثك بعد هذا عن طالب الطب الأمريكى . ولطالب الطب هنا احترام شديد.، أمامى بالصدفة على مكتب قاعة الاجتماعات خطاب من مؤسسة كليفيلاند كلينك التعليمية لطالب فى السنة الرابعة أنه قد رُشح طالباً فى قسم القلب لمدة شهرين وأن له إذا وافق على ذلك أن يحضر صباح يوم الاثنين ، إلى مبنى التعليم ، فيتسلم الكارنيه الأصفر الخاص به ، وهو كارنيه بالاسم بلا صورة ، وأن يتسلم معطفين ، وله أن يترك سيارته فى الأماكن التالية ... وأن يحضر يومياً من السابعة والنصف وحتى الخامسةمن الاثنين وحتى الجمعة ، وأن الطبيب (فلاناً) سيكون هو المسئول عن تعليمه وأن السكرتيرة (فلانة) هى المسئولة عن الأمور الإدارية التى قد تعرض له .

وتحضر المؤتمر من مؤتمرات الأقسام فتجد هـؤلاء الطلاب (بنين وبنات) هم أكثرنـا جميعاً أناقـة وشياكة .. فشعـورهم خرجت لتـوها من الصالـونات ، وربطـات عنقهم هى الأحـدث ، والأجمل ، وهى المودة ، قمصـانهم هى الألمع والأكثر جـاذبية .. وهكذا ، أصـدقك القول أنى بعـد حين من الوقت أصبحت قادراً على تمييـز الطلاب حين نكـون فى قاعـة المؤتمرات وهى مظلمة نشـاهد شرائح أو أفـلامـاً بمجـرد أن أنظـر إلى رءوسهم وأعنـاقهم وقبل أن أصل إلى صدورهم حيث يضعون الكارنيهات الصفراء.

ومعنـا فى قسم القلب طـالب نشيط هـو تيم ، فى السـادسـة والعشرين وعروسه فى الثامنة والعشرين ، وهو يقيم هنا فى كليفيلاند وهى تقيم فى كنت ـ حيث يقيم والـداه ، وصـاحبنـا لا يغـادر المستشفـى قبل أن يطمئن على كل مرضاه ، ويبلـغ النائب والمرضات بملاحظـاته عن أية اضطـرابات فى نظام القلب ، وروح المسئولية عنده فى الحقيقة تبشر بكل خير لهذا الشعب الأمريكى الذى يعتقد العالم فى إهماله!!، وفى كل أسبوع يذهب إلى كنت مرة واحدة ليرى خطيبتـه لأن السيدات يخترعـن لك مشكلات كثيرة يـاسيـدى إذا غبت عنهن لفترة ما !! هذه هى الكلينك التى ليست تابعة لكلية من كليات الطب ، ومع هذا أبت على نفسهـا إلا أن تنشئ مـؤسسة تعليميـة لنفسهـا ـ وأن تتـولى تعليم النواب والامتيـاز والزمـلاء والمرضـين والفنيين بطـريقة نمـوذجية جعلتهـا بالفعـل واحدة من المؤسسـات التعليميـة فى الطب الأمريكى وإن لم تكـن كلية طب.

وفى أثناء إقامتى فى كليفيلاند وبعد كتـابة هذه السطور، علمنا من الجرائد أن اتفاقـاً قد وُقع بين جامعة أوهـايو الحكوميـة وبين الكلينك لتتولى الكلينك التدريس لطـلاب مرحلة البكالـوريوس كما تتولى التـدريس للمتخرجين ومن المنتظر أن يبدأ هذا النظام من العام الدراسى القادم مباشرة .

دعنى أحدثك عن بعض النشاط التعليمى الذى أشارك فيه فى قسم القلب ففى كل يوم فى الصباح المبكر ما بين السابعة والنصف والثامنة والنصف يجتمع كل زملاء القلب فى قاعة مؤتمرات القلب ثلاثة أيام ، وفى قاعة مؤتمرات الباطنة يومين آخرين حول شىء ما ـ يوم الأربعاء مثلاً هو يوم الموجات فوق الصوتية تعرض عليهم فيها حالات مشوقة أو صعبة أو نادرة.

فى كل يوم من الأيام الأخرى نستمع جميعاً إلى محاضرتين ممتازتين، ربما عن شىء جديد ، ربما عن رؤية جديدة لمشكلات طبية قديمة .. ومن أبدع ما يمكن تلك المحاضرة التى اشترك فيها أربعة .. طبيب عرض المعلومات الاكلينيكية وآخر عرض نتائج الفحص بالموجات فوق الصوتية وثالث عرض نتائج الفحص بالرنين المغناطيسى ورابع عرض نتائج الفحص بالقسطرة .. وكانت الحالة التى ناقشنا تشخيصها بكل هذه الوسائل تمزق الأنوزيميا التى فى جيب فى القلب اسمه جيب فالسفا ، شىء عظيم عظيم . هكذا تمضى الساعة الأولى من وجودى فى المستشفى فى كل يوم وبعد ذلك ينصرف كل إلى وحدته أو معمله الصغير.هل أحدثك عن النشاط التعليمى فى وحدة الرعاية المركزة مثلاً.. ريثما استقر الجميع فى أعمالهم فى الوحدة وكانوا كلهم جدداً .. بعد أسبوع تقريباً وزع الدكتور جبران عليهم أوراقاً علمية لكى يحضروها ويلقوها ويناقشوا فيها .. متى سيتم ذلك .. عندما تهدأ الأمور فى حوالى الثالثة عصر كل يوم. وكل خميس يأتينا فى وقت الغذاء ما بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة واحد من أطباء الأشعة هو الدكتور وايت وهو شعلة من الذكاء والمنطق والخبرة (الإكلينيكية والإشعاعية) ومعه مجموعة هائلة من أفلام الأشعات الممتازة يضعها واحداً بعد آخر ، أو اثنين وراء اثنين على الفانوس أو الفانوسين ويشرح ما نسميه بالنظرى على الأفلام مباشرة !! رائع وأكثر من رائع .. ثم بعد أن يعطينا المعلومة يكثر من التطبيقات عليها.

فى ثانى مرة كان زميلاى مشغولين بحالة من الحالات الحرجة ، فأصبحت

أنا تقريباً أقدم الموجودين وأكثرهم خبرة على حد تعبيرهم - وعلى هذا كان المترددون فى التشخيص يأخذون جانب الأقدم حين يعجزون عن تكوين رأى ذاتى - والحمد لله قلما خذلهم الوقوف إلى جانب الأقدم.

وانتقل للحديث بك عن النشاط التعليمى فى حجرة جانبية من معمل وظائف القلب .. لا يمرُّ مريض على المستشفى أو العيادات الخارجية إلا ويؤخذ له رسم قلب ، ويوضع هذا الرسم بالطبع فى ملف هذا المريض. ولكن كل هذه الرسومات تسجل على شريط أو كاسيت وترسل الكترونياً إلى هذه القاعة المسماة بقاعة رسومات القلب .. حيث تطبع كل الشرائط القادمة وتوضع على هذه المنضدة الطويلة التى عليها كل وسائل القياس الخاصة برسومات القلب.. بدءاً من المساطر إلى الفرجارات وحتى العدسة المكبرة .. إلخ. هذه الأدوات البسيطة التى نحتال بها على فهم أسرار رسم القلب الكهربائى.

ويأتى زميل من زملاء القلب Fellow فيتولى قراءة الرسومات جميعاً بعد ما قرأ الكمبيوتر ، فإذا وافق تشخيص الكمبيوتر كتب أنه موافق ووقع بحروفه الأولى ، وإذا أراد تصحيح شىء صححه ، ووقع ، وإذا أراد إضافة شىء أضافه ، ووقع.

وهناك خمسة من أساتذة القلب Staff يتولون القراءة النهائية لكل واحد منهم يوم ، ويوم الثلاثاء هو يوم الدكتور الفلبينى ، ويوم الأربعاء هو يوم الدكتور هودجان ، ويوم الخميس هو يوم الدكتور ويتللو ، ويوم الجمعة هو يوم الدكتورة جاميس وهى أصغر أعضاء هيئة أطباء القلب على الإطلاق.

كان من حظى أن اتولى وظيفة الزميل القارىء لمدة أسبوع كامل، فى اليوم الأول كان معى زميل وفى الأيام الثلاثة التالية كنت بمفردى. ربما تعرف من عيوبى أنى عجول فى كل شىء .. وما إن فهمت نظامهم فى التعقيب والإضافة إلا كنت أذهب مبكراً بحيث أصبح الفنيون والعاملون فى حجرة رسم القلب

لايلاحقوننى بالرسومات ويعجبـون من تواجدى المبكر وتركيزى وسرعتى .. وكـان أعضاء هيئـة الأطبـاء كريمى الخلق معى إلى حـد كبير، كـانوا بـالطبع يشجعـوننى ، وقـد تعلمت منهم الكثير جـداً .. ولابـد أننى تعلمت من هـؤلاء مايعلمـه لنا أساتذتنـا فى مصر من النظر إلى الحالة الإكلينيكيـة للمريض قبل التعليق على رسم القلب والكمبيوتر ياسيدى هو الآخر لا يغفل ذلك مع أنه بلا قلب على حـد تعبير الأدباء الـذين لم يعـاشروه !!.. فهو يـذكـر لك القسم من المستشفى الـذى فيه المريـض ، ويذكـر لك عمـره ، ويذكـر لك الأدويـة التى يتعاطـاها كذلك، بالطبع ليس كل الأدويـة وإنما تلك التى لها تأثير مباشر على رسم القلـب أو على العنـــاصر المحـــددة لكثير من التغيرات فى رســم القلب كالبوتاسيوم والكالسيوم. على أن أعظم ما يحب أساتذتى فى مصر أن يسمعوا عنه فى هذه الحجرة هو ذلك النظام المحكـم الذى يسمح للأستاذ حين يريد أن يـراجع هذا الـرسـم لهذا المريض على رسم قديم لـه أن يجد الرسم القـديم فى دقيقتين أو ثلاثاً ، ما عليه إلا أن يطلب الرئيسة ، والرئيسة ستسأل الكمبيوتر والكمبيوتـر يعطيها تاريخاً قـديماً رسم فيه القلب من قبل ، والرئيســة تأمر الشرائط المغناطيسية بأن تخرج لنـا صورة من هذا الرسم القـديم وتناول لنا الرسـم القديم بعد دقيقتين من طلبنا له !!

أعرف حـالة لأستـاذ طب مصرى سافر للعـلاج ، وأجرى قسطـرة.. كان يغنيه عن سفره وجود رسم قلب قديم ينبىء عن أن هذه التغيرات التى وجدت حديثاً كانت بسبب مرض حديث أو أنها لم تكن بسبب مرض فى القلب ، أوأنها من باب الاختـلافات الطبيعيـة. وأعرف حالات كثيرة مـرت علينا خـلال يوم الـدكتور هـودجمان لم يكن لها حل إلا التحـويل لإجراء دراســات الكهربـاء الفسيولوجية ما لم يوجد لها هـذا الأرشيف العظيم الذى ساعدنا على توضيح طبيعـة تسارع ضربـات القلب هل هى من فـوق الأذين أو من البطين . كـان الدكتـور عبد العـزيز الشريف يقول دائما أن أصعب فصـل فى علم القلب هو

اللغط الانقباضى .. وكنت أستعير مقـولتـه مع تغيير الموضـوع إلى فصل « تسارع ضربات القلب من الـ ق ر س العريض Tachycardia of wide QRS ، ومع هذا فأنا الآن أعتقد أن الأرشف الجيد يـزيل صعوبة هذا الفصل الذى أتحدث عنه بحيث تبقى مقولة الدكتور عبد العزيز الشريف أقرب إلى الواقع فى وجود نظام جميل وفى غياب جهاز الموجات فوق الصوتية . أما فى وجود التكنولوجيا (جهاز الموجات فوق الصوتية) وغياب النظام (الأرشيف الجيد) كما هو الحال فى مصر فستبقى لمقـولتى السيادة حتى يسـود النظام . وبعـد أن ننتهى من تعليقاتنـا على رسم القلب يتناولها الفنيون فينقلـون تعليقاتنا إلى الكمبيـوتر ويـرسلـونها إلى الأقسام المعنيـة بمـرضـاهـا إذا كانـت لها علاقـة مباشرة بتشخيص أو علاج ثم يضعـون هذه الرسـومات بكل مـا عليها من تأشيرات وتعليقات فى جانب من الحجرة تحت لافتة تقول إن هذه الرسومات متاحة لمن يريدها من الأطباء والطلاب والنـواب والممرضات يقرأونها ويتعلمـون منها شريطـة شىء واحـد ، ألا يعيدوهـا إلى هـذه الحجرة حتـى لا تحدث ارتباكـاً بوضعها مع الرسوم الجديدة .

إلى عهد قـريب كانـوا يقرأون الموجـات فوق الصـوتية بنفس الطـريقة ، ولكنهم منذ شهـور كفوا عن هذا اللقـاء الذى كان يعقد فى الخامسـة من بعد الظهر، وأصبحوا يكتفون بعرض أسبوعى للحالات النادرة أو الطريفة.

وفى معمل وظائف القلب أيضـا مكتبة تعليميـة عن استخدامـات الموجات فوق الصوتية فى كافة أمراض القلب ، بعض هذه الشرائط انتجته جمعية القلب الأمريكية بالتعاون مع مايو كلينك، وبعضها الآخر أنتجته الأقسام العلمية فى الشركات المنتجـة لأجهزة الموجات فـوق الصوتيـة كشركة الكاسـون وشركة هولت بيكـارد .. وما عليك إلا أن تضـع الشريط وتقرأه كما يقـرأ الناس شرائط الفيديو .. تُبطىء الشريط حين تحتاج التـأمل وتسرع حين تكون فى حاجة إلى تخطى الفقرة كلها.

وفى تقاريـر القسطرة التى يـوسعون بها الشرايين يحرصـون على وضـع الصور المطبوعة من الأفلام فيما قبل التوسيع وفيما بعده لكل شريان أو فرع من شريان أو جزء من شريـان أجريت له عملية التوسيع .. سواء بـالبالون أو بتقطيع الجلطة أو بوضـع الـ Stent فى الجدار .

فإذا تركنا قسم القلب إلى قسـم الباطنة العامة وجدناهم يجتمعون أيضاً فى مؤتمرات صباحية ، أنا مشـغول عنهـا بالطبع بمؤتمراتنا الصباحية ، ولكننى اكتشفت أنهم يجتمعون كل ظهيرة فيما بين الثانية عشرة والواحدة فى مناقشة حالات طريفة من التى تقابلهم ، وفى يـوم الخميس يخصصون اللقاء لمناقشة بعض المقالات المنشورة فى المجلات الطبية ويـدير هذه الاجتماعات فى حضـور الأطباء الكبار الـدكتور باتريك وهو أحد الحائزين لـوظيفة مشارك اكلينيكى Clinical Associate و هو فى مقتبـل عمره ويتمتع هـذا الطبيب بقدرة فـائقة على الرذالة على زملائه شأن كاتب هذه السطور الذى يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخلصه من عيوبه المتزايدة ، سـأضرب لك مثلاً واحداً على رذالته ، كان فى يوم الجمعة ينبه إلى وجود صـور من المقالات التى ستناقش الخميس القادم ، فإذا به يـرجو النـواب أن يقرأوا هـذه المقالات جيـداً ثم يردف بـالقول أما الـذين يحضرون الخميس من دون أن يقـرأوهـا فإنـى أرجـو أن يأخـذوا غـذاءهم وينصرفوا قبل بدء مناقشة هذه المقالات !!

على هذا النحو تجد كل صبـاح قائمة بالكمبيوتـر تضم مالا يقل عن مائة وخمسين لقاء علمى تتم فى قاعات هذا المستشفى المختلفة فى الأوقات المختلفة ـ وأمام كل لقـاء مكانه ومـوعده وعدد المفترض حضـورهم ، والسكرتيرة التى يستعلم منها عنه ، وبعض الملاحظـات عما إذا كان هناك شروط للحضور، فى حالة المحاضرات المرتبطة ببرامج التعليم الطبى المستمر أو برامج الدراسات لما بعد التخرج ، أو الدراسـات المتعمدة .. إلخ

هذه نماذج سريعة تعطيك فكرة عن الأداء التعليمي فى هذا الصرح الطبى فإذا بهرتك بعد ذلك النتائج التى يخرج بها المرضى من زيارتهم فتذكر أن الهدف من الطب عموماً ليس علاج المريض فحسب ولكنه تقدم التعليم الطبى من أجل علاج هذا المريض فى المستقبل بصورة أمثل!!!

فإذا وجدتنى فى موضع آخر من كتاب آخر من كتبى مصمماً على أن أصبغ الطب كله فى مصر بصبغة تعليمية بحيث تنتمى كل مؤسسات العلاج الطبى وكل مؤسسات الرعاية فى مستوييها الثانى والثالث كله إلى مؤسسات التعليم الطبى طبقاً لنظام متكامل ومتدرج فاعلم أن جذور فكرتى القديمة قد لاقت غذاء فى هذا المستشفى .

ومن قال إن الطب الأمريكى بحاجة إلى أن يتقدم بخطوات واسعة أو حتى خطوات بطيئة ، إنما تتقدم اليوم التكنولوجيات التى تساند خطوات التقدم الطبى التى تحققت فيما مضى ، ويتقدم تطوير هذه التكنولوجيات وتسخيرها لخدمة أهداف التشخيص والعلاج والمتابعة .. تكون النتيجة أن الطب يتقدم ، ولكن الفن الذى فى الطب نفسه لا يصيبه شيء أبداً من التقدم، ربما تعجب بشدة لهذا الكلام ولكنك إذا كنت طبيباً أمريكياً وعاملت الأطباء الفرنسيين ووجدتهم مثلاً يغيرون الجرعة المعهودة فى العلاج لمجرد الإحساس بأن تقليل الهيبارين من ٦٠ ألف إلى ٣٠ ألف قد يعطى نفس النتيجة .. ربما تصيبك الدهشة القاتلة أن ترى الأطباء يفعلون هذا الشيء من دون أن تكون لديهم دراسات مطولة أثبتت بكل التحليلات الإحصائية صواب ظنهم. دعك من تغيير الجرعة وتعال إلى تطوير طريقة من الطرق الجراحية مثلاً كيف يدرسها الأمريكيون تفصيلاً وكيف تنتهى دراساتهم إلى أنها لاتمثل تحسناً يذكر إلا بنسبة ٥٪ . ثم إذا هم يتجرأون وينفذونها وتنجح .. بعد نجاحها يمارس الإعلام الأمريكى الخطير دوره الجهنمى، فنسبة نجاحها إلى ما قبلها كالسماء

إلى الأرض ومخاطرها لا تتعدى ١٪ وتحسيناتها تمثل ٩٥٪ من طموحات الأطباء فيما قبل .. وهكذا . نجاحات الطب فى أمريكا مزيج من تكنولوجيا دائبة البحث ، وإعلام ذى صوت عال.. وهذا المزيج قائم على مزيج آخر أخفى من أن تراه عيناك مباشرة : فالتكنولوجيا مزيج من بحث نظرى مستميت ومجموعة لا متناهية من قواعد معلومات لا تترك صغيرة ولا كبيرة.. والإعلام مزيج من دراسات علمية اجتماعية وإنسانية عميقة ، ولغة تجمع بين الدقة والتعبير فى قدرة عالية على المواءمة لا يستطيعها إلا من وصل إلى درجة الساحر الذى يبلع النار وهو يسير على السلك المشدود بقدم واحدة مصنوعة من خشب هش يذروه الرياح : وهأنذا الخص لك عوامل النجاح بطريقة ١ ـ ٢ فأعدد لك : ـ

□□ قواعد معلومات مجددة كل دقيقة ، متواصلة فيما بينها إلى أقصى الحدود، سهلة الاستخدام .

□□ دراسات علمية واجتماعية وإنسانية عميقة قادرة على مخاطبة الإنسان بكل ما فى الإنسان .

□□ استخدام سحرى للغة لايقلل سرعتها فيدركها الزمن الذى لايتوقف .. هى تعرف سرعته ولهذا تخافه خوفاً محسوباً ولكنه يتزايد مع كل حين لأن الزمن نفسه يكتسب من التكنولوجيا أبعاداً هائلة .. فالتكنولوجيا تخلق من الزمن فرانكشتين يرعبها هى نفسها .. التكنولوجيا لابد أن تنتشر حتى تحقق العائد الكفيل بأن يجعلها تزدهر .. وإنتشارها يصعب من ازدهارها ويجعلها مطالبة بتحقيق ازدهارات أكبر فى أوقات أقصر .

□□ إعلام لابد أن يكون قادراً على إدخال التكنولوجيا حتى ولو كان هذا على حساب تكنولوجيات أخرى كان هو نفسه المبشر بها !!

وهذه هى أمـريكا التى تظهر للطبيب تحت الميكروسكـوب فى أى مؤسسة طبية من مؤسساتها الناهضة.

هل تحدثنا ياسيدى عن بعض الميكروبات التى تحيط بهذه الصورة تحت الميكـروسكـوب للطب الأمـريكى ، نعم بـسوسعى أن أحـدثكم ولكنـه حـديث هواجس:

□□ ألمح هناك حقيقة ـ لا أرى ولكن ألمح ـ ضـجـراً متواصلاً من الإنفاق على كثير من البنود فى الرعاية الصحية بما لا يمثل مردوداً حقيقياً على صحة المواطن الأمريكى ولا على تقدم العلم.

□□ ألمح أيضـا بـوادر رغبـة على استحيـاء من النفس فى الخروج بـالطب الأمريكى كنشاط اقتصادى إلى ما وراء الأطلنطى .

□□ ألمح أيضا وبصعـوبة بـالغة رغبة فى إعـادة تقييم نظم التأمين الصـحى المطبقة وخصوصاً مع التفاوت الرهيب فى تكاليفها وعوائدها ومردوداتها وضجر الأطباء من بعضها وإحجامهم عن مواصلة العمل فيها.

□□ ألمح أخيراً خوفـاً من تزايد اعتماد أمـريكا على التكنولوجيـات الأوروبية واليابانية فى الأجهزة الطبية إلى أكثر من الاعتماد شبه الكلى القائم الآن . وفى ظل انتفاء أو تقلص الرغبات الأمريكية فى اقتحام هذه الأسواق !!

الفصل السابع

المسلمون فى أمريكا
طيف واسع من الألوان الجميلة

المسلمون فى أمريكا شأنهم شأن المسلمين فى كل مكان طيف واسع من الألوان الجميلة التى لكل منها حلاوته وروعته وجلاله . والاختلافات بينهم لاتعكس إلا حرص المسلمين على إعلاء كلمة الله وعلى إعطاء العقل مكانة فى ذات الوقت . قوة الحجة تجعلك إذا كنت منصفاً لا تميل إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بقدر ما تكتشف فى نفسك تواضعها وميلها إلى القول بأنك لست بفقيه ولامفت. كل يعمل من منظور ما وهو يظن نفسه مقصراً فى حق دينه رغم كل إخلاصه لمنظوره . والإسلام الحقيقى يزدهر فى قلوبهم ويتنامى فى عقولهم ويتعمق فى أعمالهم ، وفى كل يوم ترتفع له راية جديدة إلى جانب راياته التى ارتفعت من قبل .. وطبيعة الدين السمح تقربهم من بعضهم ... وروح النظام الجميل فى الإسلام الجميل تتيح لهم اللقاء المنظم بدون تكلف ولا عناء سواء فى الصلوات أو فى رمضان الكريم ، شهر البركة والإحسان.

ومع هذا لابد من أن أحدثك من باب الرواية فقط عن بعض الاختلافات الجميلة .. فهذا إمام مسجد لا يمانع فى أن يأخذ المجتمع الإسلامى من البنك

قرضـاً محدد الفائدة ليقيم التـوسعات.. ولكن إمـام مسجد المدينـة المجاورة يرفض المبدأ من أصله.

هذا المركـز الإسلامى الكبير فى لـوس أنجليس لا يمانع فى تنـاول اللحوم المتاحة باعتبارها من طعـام أهل الكتاب .. ولكن إمام مسـجد ابن تيمية فى ذات المدينة يـرى أنه لا مبرر لتنـاول هذه اللحوم مـادام هناك جـزار يذبح حسب الشريعة الإسـلامية .

هذا المسـجـد يتيح لقاء الرجال بـالنساء لأنه يريـد للمجتمع الإسـلامـى أن يتعارف وأن تتقوى روابطه بالمصاهـرة مثلاً ،أما ذلك المسجد : فلا يتيح على الإطلاق أى اتصال بين الرجال والسيدات.

أعظم ما فى كل هذا أن المسجد دائماً يحمل لافتـة المركز الإسلامـى . أقصد أنه ليس هناك مركز إسلامـى ليس بمسجد .. أرجو وادعو الله أن أشـهد اليوم القريب أن تكون المدرسة هى الأخرى المركز الإسلامى .

من الطـرائف التى حدثـت لأحد زمـلائنـا فى كليفيلانـد أنـه وهو ســائر بسيارته فى أيامه الأولى فى شـارع يوكليـد وجد مبنى عليه لافتة مسـجد القرآن Qurran Mosque سر صـاحبنا سروراً عظيماً لهذا المبنى الجميل الأنيق وواجهاته الزجاجية وعزم على الصلاة فيه .. لكنه كلما أتى باباً وجده مغلقا ، وعليه لافته أن الدخـول للأعضاء فقط ـ ومن وراء الأبـواب الزجاجية لمح مـوائد وبارات عامرة بأنـواع الكحوليات كلها وبـلا حصر ولا عدد .. قال فى بالـه : ما علينا .. أمريكا فيهـا كل شىء .. قد يكون مسجداً ونادياً فى ذات الـوقت !! وفى النهاية وجد باباً مفتوحاً يخرج منـه شـخص ، تقدم إليه وسـأله أين باب الصلاة؟ من حسن الحظ أن هذا الشـخص كان مثقفاً وعرف أن صـاحبنا مسلم فأجابه أن

هذا ليس بمسجد، وإنما هو ناد من نوادى إحدى الجمعيات الماسونية اتخذت له هذا الاسم من قبيل الديكور ليس إلا .. وتطوع الرجل فأرشد صاحبنا إلى مسجد بلال أو المسجد الحقيقى كما قال له .

أول جمعة لى فى كليفيلاند صليتها فى مسجد جميل قرب الجامعة وميدان الجامعة هو مسجد عقبة بن نافع رضى الله عنه وأرضاه . عرفت أن الطلبة المسلمين فى جامعة كيس ويسترن هم الذين تولوا شراءه وتجهيزه كمسجد.

المسجد بسيط ولكنه كفيل بأداء كل وظائف المسجد والمركز الإسلامى ، ألمح كثيراً من المصريين بين الحاضرين وكذلك ألمح فلسطينيين وعراقيين وشوام .. بالإضافة إلى الأمريكيين .

السيارات تحيط بالمسجد فى شوارع جانبية كثيرة ، والإمام اليوم هو أحد التجار الفلسطينيين وهو صاحب الجزارة الإسلامية ، الخطبة باللغة العربية ثم بالانجليزية Brothers & Sisters .

الدعوة إلى الإفطار تتجدد وفى هذا الأسبوع أيام إضافية كذلك . بعد الصلاة ألتقى بكثيرين من طلاب بعثات منح السلام المصرية.

المسلمون الأمريكيون حريصون وهم يقودون سياراتهم بعد أداء الجمعة أن يبطئوا سيرهم ليلقوا علينا السلام هم وأسرهم كذلك.

شعور جميل وعظيم ينتاب المرء منا وهو يرى نفسه واحداً من جماعة تجمعها كلمة واحدة هى كلمة التوحيد ـ تختلف الألوان والألسنة والمهن وتجتمع فى المسجد . تختلف المصالح والأغراض والوجهات وتجتمع مختلف السياسات والأوطان وتدور رحى الحروب هناك ونجتمع هنا .. ونحن نجتمع

فى كل حين لأن اللــه أراد لنا أن نكــون أمة واحــدة وستكون بإذنــه تعالى أمــة واحدة ، ويداً واحدة ، وإلى يوم الدين.

انتويت فى جمعة تالية أن أصلى فى مسجد بلال الذى فى شارع يوكليد ، أين هو بالتحديد ، لا أعرف كل ما أعرفه أنه على يمينك وأنت ذاهب إلى وسط البلد من المستشفى . ما علينا نسأل ســائقة الأتوبيس وبالتأكيــد لن تعرف فيكون من الطبيعى عندئذ أن تقترح عليك حلاً ادفع التــذكرة واركب وتطلع إليه حتى إذا وجدته فــاهبط .. وهذا ما حدث بالفعل .. ووجدت مسـجــد بلال رضى الله عنه وأرضاه ونزلت .

المسجد جميل جــداً وخلفه مساحة انتظار هــائلة وهى حافلــة والحمد لله بالسيارات ، المسجد مبنى بالخشــب الأوك الجميل وسقفه على هيئة شبه قبة جميلة بحيث تمتــد أذرع متناسقة مــن الخشب لتكون سقفاً يتــوسطه دائرة صغيرة جداً فيما عدا هذا فلا يتكــون من السقف سطح أبداً إنما هو جمالون جميل جداً .

والمسجد من طابقين : فى الدور الأرضى دورات المياة واستراحات وقاعات واسعة وفى الدور العلــوى ساحة الصلاة وهى مغلقة تماماً لابــد أن تفتح باباً حتى تــدخل إليها وفى هــذه الطرقــة التى تستقبلك بعد صعــودك السلم تجد حجرات للمكتبة وللإمام وللسكرتاريــة وتجد رفوفاً للأحذية .. ثم تفتح الباب المنزلق الذى سرعان ما يعود إلى الإقفال لتدخل إلى قاعة الصلاة.

وجــدت الأحـــذيــة لا تتجــاوز سبعين فقلت فى سرى كأنهم هنـــا أيضــاً لايلتزمون جميعــاً بتركها فى الخارج على الرفوف المعــدة.. فلما دخلت المسـجد وجدت أن عدد المصلين والمصليات قليل بالفعل .. هذا أول مسـجد أصادف فيه

المصلين فى مقدمة المسجد والمصليات فى المؤخرة بدون فاصل إلا المساحة الكبيرة الخالية من المصلين .

الخطيب يخطب بالإنجليزية مع حماس جميل يجعل الانجليزية تتسع لعبارات الوعظ الدينية القصيرة المكررة المؤكدة.

وحين أقيمت الصلاة أمنا شخص آخر استطاع قراءة الفاتحة بالعربية وفى الركعة الأولى قرأ قل هو الله أحد وفى الركعة الثانية قل أعوذ برب الناس... (كأننى أنا الإمام) . لم أستعذب اللغة العربية يوماً كما استعذبتها وهى تخرج مكسرة تماماً من فم الشاب الذى أقام الصلاة ثم وهى تخرج ما بين التكسير والسلامة من فم هذا الشيخ الذى صلى بنا الجمعة.

أحسست بعد الصلاة كم نحن مقصرون فى حق هؤلاء .. إننا سعداء فى كثير من الأقطار الإسلامية بما نقدم لهم فى بعض الأحيان من فتات الأموال أو حتى الأموال الضخمة .. ولكننا نحرمهم أعظم شىء يربطهم بالإسلام وهو اللغة . لو بذلنا فى نشر اللغة العربية واحداً فى المائة مما تبذل فرنسا فى نشر اللغة الفرنسية إلى الحد الذى وصفه لى صديق دبلوماسى أوروبى بقوله «وإجبار الناس على تعلمها» أقول إننا لو بذلنا واحداً فى المائة من هذا الجهد فى تعليم اللغة العربية لهؤلاء الذين يستحقونها لصلحت دنيانا وصلح ديننا .

إن فرصاً لا تعد ولا تحصى متاحة ومفتوحة ومرحبة بنصف مليون خريج من الشباب للقيام بدورهم فى تعليم اللغة العربية للمجتمعات الإسلامية المنتشرة فى أمريكا وأوربا وأفريقيا وجنوب شرق آسيا .. كل ما هو مطلوب من هؤلاء أن يلموا باللغة الإنجليزية (أو غيرها) إلى الحد الذى يتيح لهم التعامل مع هذه المجتمعات من أجل الأخذ بيدها إلى تعليم اللغة العربية.

هذه المجتمعات ليست منظمة وليس أسهل من تعليم الصغار الذين يتوق أهلهم إلى أن يسمعوا القرآن الكريم باللغة العربية من أفواه أبنائهم .. سواء كان هؤلاء الأبناء لا يعرفون العربية أصلاً أو كانوا يعرفونها وشغلتهم الحياة الدنيا وزوجاتهم عن أن يجدوا وقتا يعلمون فيه أولادهم لغتهم الأولى ، كثيرون من الذين يقرأون هذا الكلام سيتأكدون من أننى أبالغ حين أقول نصف مليون ولكننى أخشى أن أقول إننى متواضع لأنى لو ذكرت الرقم الحقيقى لكان أكثر من هذا بكثير .

تسألنى بالطبع عن التمويل .. إن هذه المجتمعات قادرة على التمويل لأنه لا يكلف شيئاً .. هل توافقنى على أن تتصور المسألة بشىء من التقريب .. هل ألف دولار كمرتب لهذا الخريج كافية ـ تجيبنى بنعم ـ هل عشرة فى المائة من مصروفات إدارية لتنظيم العملية كافية ـ تجيبنى بنعم ـ هل عشرون فى المائة كذلك لاستئجار أماكن . إذا لم يكن هناك مساجد أو جمعيات إسلامية أو جمعيات أخرى لتعطى الفرصة لاستغلال المكان الخاص بها فى ساعات محددة أو لم ترحب السلطات الحكومية بإدراج هذه العملية ضمن البرامج الأساسية أو الإضافية فى المدارس التى تضم عدداً كبيراً من هذه الجاليات مع أن معظم السلطات توافق على مثل هذا المبدأ من مبدأ احترامها لحقوق الإنسان، وحقوق الأقليات وحرية العقائد ومع أن الهيئات الشعبية المحلية بالطبع حريصة بحكم النظم الديمقراطية على تهيئة هذه الفرص.

هل تكفيك عشرون فى المائة على سبيل الإجمالى كاحتياطى للحالات التى تحتاج تمويلاً لبند المكان تجيبنى بنعم .. إذاً هل مبلغ لا يتعدى ألف دولار ونصف فى الشهر يكفى لتعليم خمسين طفلاً أو قل أربعين يمثل مشكلة ؟؟

فى أمريكا وحدها مالا يقل عن خمسمائة ألف مجتمع مسلم فى آلاف المدن الصغيرة وأحياء المدن الصغيرة (عدد المسلمين فى التقديرات المتوسطة حوالى ٦مليون مسلم) ينتظر هذه الفرصة لتكون هناك مدرسة ولو من مدارس الفصل الواحد فى أيام الآحاد لإنجاز هذا الأمل العظيم الذى نتطلع إليه جميعاً بدون أن نبذل فى سبيله إلا الجهود المتفرقة .

وأحب أن نفهم أن هذا المشروع كفيل بتطوير برامجه ومناهجه يوماً بعد يوم بحيث يصبح خير وسيلة لوجود اللغة العربية فى موقعها الصحيح .. وبحيث يغفر للمسلمين تقصير بعض دولهم الرائدة كالدولة العثمانية فى حق لغة القرآن . ومن الواضح أننى أتحدث عن اللغة العربية كلغة ثانية إلى جوار الإنجليزية وهذا لا ينفى بالطبع أننى أتمنى أن أعيش حتى أرى العربية هى اللغة الأولى لكل مسلم على وجه الأرض ..

والأمر ياسيدى يستلزم حماساً تاماً لإتمام العمل من خلال منهج متصل معروفة حلقاته على مستوى العالم الإسلامى كله بحيث يقول الصغير فى اندونيسيا إنه وصل إلى الدرس السابع والثلاثين من الحلقة الثانية مثلاً فيجد نفسه عند انتقال والديه إلى أمريكا يواصل الدرس الثامن والثلاثين مباشرة ، وبحيث يستطيع وهو فى لوس أنجليس إكمال ما بدأه وهو فى نيويورك، وفى هذا المجال لابد أن أذكر أن أمريكا نفسها حتى اليوم لا تزال تعترف بعدة لغات أوروبية كلغة أولى :

فاللغة الأسبانية هى اللغة الأم لثمانية ملايين شخص أمريكى.

واللغة الألمانية هى اللغة الأولى لخمسة ملايين آخرين .

واللغة الإيطالية هى اللغة الأم لأربعة ملايين أخرى .

وأرجو أن يأتى اليوم الذى تحتل فيه العربية مكانتها اللائقة بها وبخاصة أنها اليوم هى اللغة الأولى الحقيقية لمئات الألوف من الأمريكيين المهاجرين. ولكن المشكلة التى أنبه إليها أنها تتراجع مع تعاقب الأجيال ربما إلى أن تصبح لغة أجنبية عند أبناء عرب مسلمين ولدوا فى المجتمع الأمريكى لأم أمريكية أو لأم عربية مسلمة يشغلها عملها عن أن تعلم أبناءها العربية فتتركهم يعاملونها بالإنجليزية وكأنها تعامل الخواجات !! وتبقى العربية بينها وبين زوجها فحسب!!

أعرف أن الأمر يحتاج إلى وقفة متأنية فى التخطيط الدقيق وإلى أن نبدأ بولاية أو إقليم على سبيل التجريب الرائد ويحتاج إلى كثير من التنظيم واحترام النظام الأمريكى والتوافق معه تماماً .. ويحتاج إلى كتاب جيد التأليف وجيد الطباعة وجيد الإخراج ويحتاج إلى شبه هيئات مركزية تتولى تنظيم بعض الأمور كتوزيع الكتب وتسكين المدرسين والحصول لهم على التأشيرات .. وكل هذا إذا عرفت الحياة الأمريكية من باب واسع وقوى ميسر بإذن الله .

أعرف أن العقبة الكبرى أمام مثل هذا المشروع هى مسألة التراث المتراكم من ادعاء الفضل وحب الحمد بما لا نفعل إلى حد العذاب وهو ما حذرنا منه القرآن الكريم ، والاحتمال الأكيد فى أن تتنازع الإشراف على المشروع هيئات مختلفة كالخارجية والأوقاف والتعليم والقوى العاملة والهجرة وكل المؤسسات التى تتبعها هيئات لا علاقة لها من قريب أو بعيد بمثل هذا المشروع .. ولكن لو كان الأمر بيدى لتركته للجيش كما يفعلون فى فرنسا حين يجعلون تعليم اللغة الفرنسة فى الخارج أحد البدائل للخدمة العسكرية الوطنية الإجبارية .. حتى نقل هؤلاء الشباب إلى الخارج اتركه للطائرات الحربية لو أمكن !! حتى لا تصرخ مصر للطيران من رزق وفير لا تتعب فى

الحصـول عليـه وهى مع ذلك تشكـوه كما تفعل فى مـواسم الحج وعـودة المدرسين!!

واحب أن أقـول إننى لا أحلم بمستقبل لا يتحقق أو غير قـابل للتحقيق ولكننى أتحدث عن ماض تأخـر وقوعـه فى ظل انشغالنا التـام بأزمات كثيرة ابتلعت أوقاتنـا وألهتنا عن مسئوليـات سوف يسـألنا عنهـا ربنا يوم القيـامة فنحن نترك الخريجين بـلا عمل ثمان سنـوات ونترك أخـوة فى الإسـلام يتعطشـون إلى من يعلمهم لغة القرآن فى ذات الوقت.

لم أنته من أحلامى هـذه إلا وكنت خارج قاعة الصـلاة أمام المكتبة فقلت لنفسـى ادخل المكتبة لعلى أجد أملاً ، فإذا باليأس يقتلنى .. المكتبة مجموعة من كتب تصلح لأى مدرسة أمـريكية ليس إلا .. وعلى رف أو رفين فقط من المكتبة الكبيرة جداً تجد مجموعـة من المصاحف وصحيح البخارى وكتـاباً فى فلسفة توما الاكوينى .. كل هذا ما يمكنك أن تعتبره ذا عـلاقة ولو إلى حد بعيد بمكتبة فى معبد! .. وعلى المنضدة التى تتـوسط المكتبة تجد أعداداً من جريـدة آسيوية إسلاميـة إعلاميـة مصـورة فاخـرة الطباعة والـورق .. إذن فالطـريق إلى هنا معروف ولكنه لا يحمل ما ينبغى أن يحمله من زاد يبنى ضمائر المسلمين!!

أما أعـداد المسلمين فى أمريكـا فتتضارب حـولها الأرقام .. كما تتضـارب حـول أعدادهـم فى كل مكان ، وليس مـن شـأن هذا الكتـاب أن يحلل لك هـذا التضارب لأن مـؤلفه لا يعهد فى اليـوم نفسه القـدرة على الزعم بالـوصول إلى الحقيقة فى أمر يحتـاج القول الفصل فيه كثيراً من الوقت والـدراسة، ومع هذا فإنه يمكن بوسائل كثيرة تقدير أن عدد المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية لا يقل عن ستـة مـلايين شـخص، على أنى مع هـذا أحب أن أشير إلى خمس موجـات للهجرة إلى أمـريكا: الأولى فيما بين ١٨٧٥ ، ١٩١٢ وفى هـذه الهجرة

جاء كثير من التجار وطلائع أدباء المهجر .الثانية فيما ١٩١٨ و ١٩٢٢ حيث تدفق مسلمو لبنان للعمل فى مصانع فورد للسيارات فى ولاية ميشجان .الثالثة فيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٨ فى فترة الكساد العالمى فى الثلاثينات .والرابعة فيما بين ١٩٤٧ ، ١٩٦٠ فيما بعد الحرب العالمية الثانية .والخامسة فيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ . ويقال مثلاً إن حوالى عشرين ألف مصرى فيما بعد ١٩٦٧ قد هاجروا إلى ولاية نيوجرسى وحدها .

ولاشك أن أمريكا تفيد من العقول المسلمة أكثر مما يفيد المجتمع الإسلامى .. لا تظننى أديباً مجازى اللفظ وأنا أكتب هذه العبارة .. ولكن تأمل معى ما يعنيه أن أعداد الأطباء الإيرانيين العاملين فى مدينة نيويورك وحدها يفوق كل الأطباء الإيرانيين العاملين فى إيران. دعك من إيران وتأمل الجانب الآخر من الخليج العربى الذى تصر الصحافة الأمريكية على تسميته بالخليج الفارسى حيث العراق .. تجد أن أكثر من ثمانين فى المائة من مبعوثى العراق إلى أمريكا لا يعودون إلى العراق بعد انتهاء بعثاتهم..

دع العراق وإيران واذهب إلى الباكتسان حيث لايزال الناس هناك يتعلمون بالإنجليزية ويتخرجون من جامعات تدرس الإنجليزية تجد أنه ما أن تعلن نتيجة كل الطلبة حتى يكون أكثر من تسعين فى المائة من خريجى مدارس الطب واقفين أمام أبواب السفارتين الأمريكية والإنجليزية يبدأون كل المحاولات الكفيلة بالحصول على فرصة لقضاء النيابة فى هذه البلاد.

أنا لا أعرف هل كان الأمر يصبح كذلك فى مصر لو كنا ندرس الطب بالإنجليزية بدلاً من الفرانكوآراب .. ولكننى متأكد من أنه لن يصبح كذلك على الأقل فى هذا الجيل ، لأن معظم خريجى ما يسمى مدارس اللغات الانجليزية يعملون معنا فى مصر ولا يندفعون إلى هذا الذى يندفع إليه الباكستانيون بله

الباكستانيات .. لن أحدثك عن أهـل الشام فأنت تعرف حبهم جميعاً للمهجر، من أجل كل مـا هو جميـل فى المهجر ، وحـرصـهم على الـوطن من أجل ما هـو جميل فى الـوطن ولكنى أحب أن أنتقل بك إلى هـجـرة الأيـادى كما حـدثتك عن هـجرة العقـول فلا تـزال أمريكا بحـاجة إلى كثير جـداً من الأيادى . وللطبقات الفقيرة غير المتعلمة مكان أيضاً فى أمريكا: فى مزارع قصب السكر فى فلوريدا و فى نصب السياج حول مزارع المواشى والخيول فى تكساس . و فى جمع التفاح فى فرجينيـا و حصاد الشمندر فى كـولورادو و جنى القطن فى نيـومكسيكو. وأعمال النظافة فى الفنادق الأمريكية.

ومع هذا كله فلازلت أرى أنه لابـد من أن يشعر المسلمون فى كل مكان أن أمريكـا ليست لغيرهم فقط ، ذلك أن العـالم الجديد كلـه نعمة من اللـه للعالم القديم كله . فإذا كان ولابد من الحديث عن الحقوق التاريخية (على أساس أننا فى عـام ١٩٩١ التالى لعـام الحقوق التـاريخية) حقـوق الاكتشـاف فإنـه من الثـابت أن المسلمين اكتشفوا العـالم الجديد فى القـرنين العاشر والثـانى عشر الميـلادى قبل كـولمبس كما أن المسلمين السـود دخلوا أمـريكـا منـذ ١٥١٨ كمهاجرين لا كرقيق وقد أفاض فى تأصيل هذه المعانى جابر هاشم فى كتابه MY NATION الذى صدر عن المطبعة الإسلامية فى ١٩٨١.

ولابد أن نفهم أن ظلم المسلمين الأفـارقة وإحضـارهـم كرقيق لم يحدث فى مطلع العالم الجديـد وإنما بعد ذلك بقرن أو بقرنين وقـد بلغ ذروته فى الفترة مابين ١٧١١ ــ ١٨١٠ على يد التجار البريطانيين والفرنسيين.

ليس هـذا الكتاب مجالاً مستفيضاً لأحـدثك فيـه عن الدعـاة إلى الإسلام وزعماء الحركات الإسلامية الحقيقية أو الممـولة للعمل ضد الإسلام.. ولكنى أستطيع أن أدلك على مجمـوعـة من الكتب تحدثك عـن هـؤلاء : فهناك كتاب

" المسلمون فى أوروبـا وأمريكـا " نشرته دار ازيس للتأليف والنشر والترجمة والنشر للأستاذ على المنتصر الكتانى ١٩٧٤ . وهنـاك كتاب «العرب فى المهجر الأمريكى» للأسـتـاذ عامر إبراهيم القنديلجى ، نشرتـه وزارة الإعلام فى بغداد عام ١٩٧٧ . وهناك دراستـان هامتان للأستاذ كمال كـامل نمر الذى يشغل منصب المشرف التربـوى فى الأكاديميـة الإسلاميـة السعودية فى واشنطن : الأولى بعنوان أحوال المسلمين فى أمـريكا تربوياً ، وقد نشرتها فى الـدوحة عام ١٩٨٥ مؤسسـة الشرق للعلاقـات العامـة للنشر والترجمة . والثانيـة تحمل عنـوان "أضـواء على أحوال خير أمـة أخـرجت للنـاس فى الولايـات المتحدة الأمريكيـة» وقد نشرتها عام ١٩٨٦ دار البشـائر الإسلامية للطبـاعة والنشر والتوزيـع فى بيروت .. وهناك أيضـاً كتاب «الجاليـة الفلسطينية فى الـولايات المتحدة الأمريكية» لرياض مقصود (١٩٨٠) . وهناك كتاب هام يحمل عنوان «صـورة العرب فى أمريكا» للدكتور عبد القادر أبو شريفة، نشر فى شيكاغو عام ١٩٨٥.

وفى فترة سـابقة على هذه الفترات نشرت عدة دراسات وانطباعات هامة عن أمريكا لعل القراء يذكرون منها كتاب الأسـتاذ مصطفى أمين عن أمريكا (الذى أعيد طبعه مؤخراً فى القاهـرة) وكتاب الأسـتاذ سيد قطب الشـهير ، وأذكر بهذه المناسبة أننى التقيت فى مكتبة الجامعة الأمريكيـة بالقاهرة حوالى عام خمسة وثمانين بأستاذة أمريكية كانت تبحث عن الحلقات الأصلية التى نشرها سيد قطب عن زيارته لأمريكا قبل أن يجمعهـا فى كتاب.. يبدو والله أعلم أن حرص الدارسـات الأكاديميـة الأمريكيـة بلغ الحد الذى جعلهـم يقارنـون الحلقات الأصلية بما جمع كتب ليروا ما قد يكون سيد قطب قد حرص (افتراضياً) على تعـديله فيما بين النشرين!! وقـد نشرت عن هذا الكتـاب دراسات كثيرة منهـا

كتاب «أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب» لصلاح عبد الفتاح الخالدى نشرته دار المنارة للنشر والتوزيع فى ١٩٨٥ .

ليس هذا الكتاب مجالاً لتحليل أو تلخيص هذه الكتب وإن كنت أود أن أتمكن من ذلك عن قريب بعون الله ولكنى لا أستطيع أن اترك هذا الموضوع دون أن آخذ على الدكتور كمال نمر تحامله على « ولاس محمد . والهيئة الإسلامية الأمريكية » فعلى الرغم من أن الدكتور نمر يشهد لولاس محمد بأنه قام بإصلاحات جذرية فى عقيدة جماعته ، وأنه بادر إلى تغيير اسم الجماعة من أمة الإسلام أو البلاليين إلى الهيئة الإسلامية الأمريكية . The American Muslim Mission و « أنه أعلنها صريحة مدوية فى مؤتمر رابطة العالم الإسلامى سنة ١٩٧٧ فى مدينة نيو آرك أنه هو وأتباعه جميعاً يشهدون منذ اليوم أنهم مسلمون سنيون يتبعون القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وطالب أتباعه بالصلاة والصيام والحج».

وعلى الرغم من شهادة الدكتور كمال نمر لهم بالقوة والنشاط ، فعددهم يربو على مليون عضو ولهم إذاعة تنقل دعوتهم لأعضاء الجماعة وللآخرين ولهم ١٥٦ مسجداً فى ٣٩ ولاية وفى العاصمة واشنطن» .

على الرغم من ذلك إلا أن الدكتور كمال نمر شأنه شأن كل الأكاديميين يتحفظ فيردف كل ذلك الخير بقوله إن هناك من ينظر إلى هذه الجماعة نظرة ريبة وتوجس معتبراً أنهم منبثقين عن القاديانية وهى جماعة مرتدة عن الإسلام .. ولك ياسيدى الدكتور نمر أن تتحفظ ولكن أن يكون تحفظك هذا صادراً أو مؤيداً فحسب بعبارات الأستاذ الكتانى كما نقلت فأمر لا نستطيع أن نقرك عليه لأن الكتانى نشر رأيه فى ١٩٧٤ وأنت بنفسك الدكتور كامل نمر الذى تنبهنا إلى ما أعلنه ولاس محمد (صريحة مدوية فى عام ١٩٧٧) .. إذن

كان لابد ياسيدى وأنت تملك أداة البحث العلمى الحق أن تدلنا على رأيك حتى لو كان متحفظاً.. أما أن تورد رأياً مخالفاً لرأى لتعقب على الرأى الأول فحسب فأسلوب لا بأس به فى البحوث الأكاديمية ليظهر ما نسميه بالموضوعية ، أو لينبىء عن كثرة مطالعتك للمصادر المختلفة متضاربة الآراء .. ولكنه يصبح قاصراً فى كتب من شأنها أن تحدث المسلمين عن عقائد المسلمين وتطورات هذه العقائد .

بقى أن اتحدث عن انطباعاتى عن الدعوة والدعاة وأكون مخطئاً إذا زعمت لك أن فى وسعى أن اتناول هذا الحديث باستفاضة أو فهم عميق ، ولكنى مع ذلك أحب أن اذكر لك انطباعى أن الإسلام فى أمريكا لا يحتاج إلى دعاة من أولئك الذين يرون أنهم غير ملزمين بتعلم اللغة الإنجليزية لأن القرآن نزل بلسان عربى ولأن لسان أهل الجنة عربى ، أو أولئك الذين يجدون كراهة فى تناول طعامهم بالشوكة .. أما المؤسسات التى تنظم عمل أولئك الدعاة فينبغى أن تكون أبعد ما تكون عن الولاء القومى !! طبعاً من الغريب أن تقرأ ياسيدى القارىء عبارة مثل هذه التى صدمتك بها لتوى ! ولكن هذه هى الحقيقة التى لابد أن نعرفها ، فالدعوة لوجه الله والولاء لدعوته ودينه ينبغى أن يكون الهدف الأول والوحيد لكل مؤسسة تعمل من أجل دعوة التوحيد .. فيما عدا ذلك فإن الولاء القومى والحزبى كفيلان بتحويل الأئمة إلى كُتّاب تقارير ، والدعاة إلى موزعى منشورات حتى وإن كانت هذه المنشورات كتباً .

ومع أن طريق الدعوة الإسلامية فى المهجر محفوف بكثير من المصاعب والمخاطر فإنى لا أشك لحظة واحدة فى أنه سوف يلاقى نتائج طيبة ربما بأكثر مما يتوقع العاملون فيه .

كتب للمؤلف

١ ـ الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً ،

(الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب العربى عام ١٩٧٨) .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

٢ ـ مشرّفة بين الذرة والذروة،

[نال عنه المؤلف جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم عام ١٩٨٢] .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٨٠

٣ ـ كلمات القرآن التى لا نستعملها (دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية) ،

دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٤ ـ يرحمهم الله (كلمات فى تأبين بعض الشخصيات)

دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٥ ـ من بين سطور حياتنا الأدبية (دراسات أدبية)

دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٦ ـ الدكتور أحمد زكى ، حياته ، وفكره ، وأدبه .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٧ ـ مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل،

دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٨ ـ سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض،

دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، ١٩٨٤ .

٩ ـ **الدكتور على باشا إبراهيم**، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٩٨٥ .
١٠ ـ **الحلول الجزئية هي الأجدى أحيانا .. مستقبلنا في مصر**،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
١١ ـ **التشكيلات الوزارية في عهد الثورة**،
الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ،١٩٨٦ .
١٢ ـ **الدكتور سليمان عزمي**، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .
١٣ـ **الدكتور نجيب محفوظ**، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .
١٤ـ **دليل الخبرات الطبية القومية** مع مقدمة وافية عن تاريخ وحاضر مؤسسات التعليم الطبى المصرية ،
مركز الإعلام والنشر الطبى ، الجمعية المصرية للأطباء الشبان ، ١٩٨٧ .
١٥ ـ **الصحة والطب والعلاج في مصر**،
جامعة الزقازيق ، ١٩٨٧ .
١٦ـ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية**، المكتبة الثقافية ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ .
١٧ ـ **رحلات شاب مسلم**،
دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٩
١٨ـ**الببليوجرافيا القومية للطب المصرى** ، الجزء الأول والثانى ١٩٨٩ ،
الجزء الثالث والرابع ١٩٩٠ ، الأجزاء من الخامس وحتى الثامن ١٩٩١ .
الأكاديمية الطبية العسكرية ، وزارة الدفاع ، القاهرة .
١٩ـ**منهج أدباء التنوير في كتابة تاريخ الأمة الإسلامية** ،
رابطة الجامعات الإسلامية ، الرباط ، ١٩٩٠ .
الطبعة الثانية : **أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى** ، دار الشروق، ١٩٩٤.

٢٠ ـ **مجلة الثقافة [١٩٣٩ ـ ١٩٥٢] : تعريف وفهرسة وتوثيق**،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .

٢١ ـ **شمس الأصيل فى أمريكا** (من أدب الرحلات) ،
دار الشروق ، ١٩٩٤ .

٢٢ ـ **أوراق القلب** (رسائل وجدانية) ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٢٣ ـ **مذكرات وزراء الثورة** [دراسة تشريحية تاريخية نقدية لعشر مذكرات سياسية] .
دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٢٤ ـ **المحافظون** (قوائم كاملة ، وفهارس تفصيلية وأبجدية ، ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء الإدارة المحلية فى ١٩٦٠ وحتى الآن) ،
دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

المحتويات

رقم الإيداع ١١٣٤٨ / ٩٤
I.S.B.N 977 - 09 - 0255- 1

مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

شمس الأصيل في أمريكا



د . محمد محمد الجوادي

« وأنا أعرف أن مهمتي في كتابة رحلاتي شاقة عسيرة لأني لا أصف الطبيعة كما فعل الذين سبقوني .. ولكني أحاول أن أصف الحضارة ، ووصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة .. أما وصف الحضارة فيستلزم مع هذه القدرة أ متناهية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب .. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة . أن تكون جندياً قارب نيل الشهادة وأخلفته الحضارة بآثار عمله من أجلها قبل أن تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما استمتع بها » .